التخييل الذاتي

دراسة مقارنة بين الأيام لطه حسين وديفيد كوبر فيلد لتشارلز ديكنز

د/أسماء محمد عبدالحميد(*)

الملخص :

يهتم الأدب المقارن في واحد من مجالاته بالظروف المتقاربة التي تؤثر في الأدباء ونشأتهم ، فيهدف البحث إلى قراءة عملين أدبيين دار حديث نقدي حول نسبتهما إلى جنس أدبي بعينه، فقد صنفهما النقاد بين السيرة الذاتية والرواية ، وهنا يأتي التخييل الذاتي في محاولة لنسبة هذين العملين إلى التخييل الذاتي أو إضاءة حضوره فيهما. هذه الأعمال كتبت قبل الحديث عن تشعب الأنواع الأدبية، وظهور التخييل الذاتي ونسبته إلى الرواية والسيرة الذاتية ، أو العكس، ثم ها هي الآن تُقرأ قراءة جديدة في محاولة لنسبتها إلى التخييل الذاتي، باعتباره مصطلحًا له اتصال برواية السيرة الذاتية، لأن العملين (الأيام، ديفيد كوبرفيلد)، يحملان في طياتهما ملامح التخييل الذاتي . وما يروم إليه هذا البحث كذلك هو تلمس نقاط التقابل والتقاطع في جنس أدبي يشوب تصنيفه الأجناسي إشكالية ما التي تنتج عن العوامل المكونة له ، والأعراف الخاصة بتكوينه الأدبي، وموقعه بين الأجناس الأدبية الأخرى . وكذلك المرجعية التي يستند إليها، وهذا الجنس له خصوصية كونه يروي قصة حياة حقيقية نابعة عن الراوي أو السارد نفسه.

الكلمات المفتاحية: الأدب المقارن ، الرواية، التخييل الذاتي ، تشارلز ديكنز ، طه حسين.

The research aims to read two literary works that had a critical discussion about their attribution to a particular literary genre, as the critics classified them between the autobiography and the novel. These works were written before talking about the bifurcation of literary genres
And the emergence of self-fiction and its attribution to the novel and autobiography, or vice versa, then here it is now being read in a new attempt to attribute it to self-fiction, as a term related to autobiographical narration.Because the two books (The Days, David Copperfield) carry within them the features of self- fiction.

(*)مدرس الأدب والنقد بقسم اللغة العربية كلية الآداب –جامعة أسيوط

مقدمة:

يهتم الأدب المقارن في واحد من مجالاته بالظروف المتقاربة التي تؤثر في الأدباء ونشأتهم، وما يروم إليه هذا البحث هو تلمس نقاط التقابل والتقاطع في جنس أدبي يشوب تصنيفه الأجناسي إشكالية ما التي تنتج عن العوامل المكونة له ، والأعراف الخاصة بتكوينه الأدبي، وموقعه بين الأجناس الأدبية الأخرى، وكذلك المرجعية التي يستند إليها، وهذا الجنس له خصوصية كونه يروي قصة حياة حقيقية نابعة عن الراوي أو السارد نفسه، وهنا يلعب التخييل دورًا في نقل الوقائع وكذلك المشاعر والتجارب ، وموقف صاحب القصة من العالم ، وموقف المحيطين به منه، والمحطات التي أثرت فيه في سنوات الطفولة الأولى وما تلاها من مراحل العمر، فهذه القصة وطريقة روايتها تنقل صراع الذات في مقابل الزمن ، من المنتصر؟

كذلك يهدف البحث للتركيز على محطات في طفولة كل من طه حسين من خلال كتابه الأيام ، وكذلك تشارلز ديكنز من خلال روايته ديفيد كوبر فيلد والتي عدها النقاد بمثابة سيرة ذاتية لديكنز ، ويركز البحث على التجارب الشعورية التي لامست شخصية الأديب في طفولته وبلورت حسه المرهف ، والذي نقل إلينا في صورة تخييلية ذاتية من كل من الأديبين ، وما يهمنا هو ليس المقارنة بين الأحداث وإنما الأثر الناتج في نفس كل من الأديبين نتيجة لتلك الأحداث.

هناك علاقة معقدة بين الأنا وفعل الكتابة ، ربما يساعد في تفكيك ذلك الغموض في العلاقة جنس أدبي اتجهت إليه الأنظار في العصر الحديث، وهو السيرة الذاتية ، والتي تكون فيها الأنا الساردة هي نفسها الأنا الفاعلة ، وتكون الذات هي الموضوع في الوقت نفسه؛ لأن كل موضوع يتم طرحه في السيرة الذاتية يدور حول الذات وهنا تتجلى إنسانية الكتابة عن الذات، وتتجلى كذلك أهمية التركيز على قراءتها من عدة اتجاهات، ربما تفصح عن الطاقات الإيحائية الكامنة فيها .فلابد إذن من "وسيلةً لكتابة الذات والتعريف بها وبرحلتها الوجودية بين الحياة والموت"i .

وقد تحدث طه حسين عن ذاكرة الإنسان ، وكيف تكون انتقائية إلى درجة كبيرة جداً ، تمحو بعض المواقف محوًا وكأنها لم تكن وتلبسها غشاوة النسيان ، وتثبت بعض المواقف ، بشكل واعٍ أو يفعله اللاوعي ، وتكون حيلة من حيله لمساعدة الذات في تخطي الصعاب، والتخطي يكون كذلك بمساعدة التخييل الذي يساعد في سد الفراغات التي تتركها الذاكرة ، ويساعد في تجريد الحقيقة ومحاكمتها ، الحقيقة التي تمس الكيان، ثم التخلي والتقدم ، وربما لا يكتمل نضج الإنسان إلا بعد مواجهته لماضيه، والسمو فوق آفاته وعيوبه ، ومن ثم مخاطبة الشعور الجمعي الذي يتلقى التجربة ويستثمرها كذلك لمواجهة حقيقته وماضيه هو أيضًا.

تلك المشاركة والمشاطرة الواعية من صاحب التجربة تمس كذلك كل من قابل في مشوار حياته، وكل من أثر فيه بالإيجاب أو السلب، كل من شاطره وقتًا من حياته، وهنا يتجلى الإبداع في إظهار التعالق بين التخييلي والمرجعي ، الذي يجعلنا نتساءل كل مرة وفي كل مستوى من مستويات السجل النصي، ما التخييلي؟ وما المرجعي؟

إذ تكون التجربة في الرواية السيرالذاتية والتخييل الذاتي، إنسانية ذاتية حميمة خالصة، لا يمكن مقاربتها إلا بمقاربة شعور المبدع وروحه ، لأن صاحب القصة يحكيها ويسردها ويبلورها في بنية سردية لغوية تجعل مغامرة اللغة مغامرة كيان إنساني، وهو إذ يفعل يقف بين ماضي الإنسان وحاضر المبدع ، بين مشاعر التجربة السابقة، وقريحة المؤلف الحاضرة ، مما يساعده في المزج بين إمكاناته الإنسانية والإبداعية ، وبين مستويات التخييلي والمرجعي.

وهنا نلامس جوهر الأدب الحقيقي، الذي كاد يتلاشى في زحام المبالغة في تطبيق المناهج اللسانية= اللاإنسانية ، ودعاوى قتل المؤلف = موت المؤلف.

الكتابة عن الذات – السيرة الذاتية :

من الأجناس الأدبية التي تبلورت داخلها وتماهت معها الكتابة عن الذات٢ هي – السيرة الذاتية أو الرواية السيرية (الرواية الذاتية)، وهي رواية يحكي فيها الكاتب حياته بطريقة فنية تخييلية إبداعية يمتزج فيها الخيال مع الواقع بشكل متوازن ويجب أن يظل الكاتب متمركزًا بشكل ما في حدود واقعية الأحداث كما يحافظ على إطارها الفني الخيالي أو التخييلي.

لقد ظهر هذا النوع الأدبي على يد جان جاك روسو الذى أرسى معالم هذا الفن وتعد السيرة الذاتية نوعاً من أنواع الأدب التي يعرض فيها " المؤلف (صاحب السيرة) لحياته الواقعية ، في أسلوب أدبي " (٣)وعلى هذا فإن الأعمال التي يقوم فيها المؤلف بالحديث عن ذاته أو حياته أو مواقف من حياته هي أعمال ذاتية سواء أكانت شعرًا أم نثرًا، سواء أكانت حياة عالم أو أديب أو رجل شرطة فهي لا تختلف في هذا مع حدود الكتابة الذاتية "حين ننظر في تاريخ السيرة الذاتية في الغرب نجد أن الدارسين يجمعون على أن بدايتها الفعلية كانت مع اعترافات جان جاك روسو ، وقد ظهرت بعد وفاته ، فاعتبرت السيرة الذاتية بنت القرنين التاسع عشر والعشرين ، وإن كان التاريخ قبل ذلك قد حفظ لنا كتبًا من قبيل السيرة الذاتية لعل أقدمها "اعترافات" القديس أوغسطين ، وقصص حياة جيروم كاردان"٤

.

كما وضع فيليب لوجون حدًا للسيرة الذاتية فقال إن:"السيرة الذاتية حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة"٥ ومن هذا الحد استنبط التالي :

- شكل اللغة أ- حكي. ب- نثري.
- الموضوع المطروق:حياة فردية وتاريخ شخصية معينة.
- وضعية المؤلف : تطابق المؤلف (الذي يحيل اسمه إلى شخصية واقعية) والسارد.

وفقًا لما سبق لابد أن تتحقق العناصر التي ذكرها لوجون ليدخل العمل الأدبي تحت تعريف السيرة الذاتية؛ لأنه "من البديهي أن مختلف الأصناف متفاوتة من حيث إجباريتها:إذ يمكن أن يتحقق الجزء الأكبر من بعض الشروط دون أن يتم ذلك كليا،يجب أن يكون النص حكيا قبل كل شيء"٦، لا يمكن إخضاع جميع النصوص لتلك الشروط ، لكن بعضها من البديهيات فكلمة سيرة تعني قصة ، وذاتية تعني انها تتصل بحياة فردية وعوامل تكوين شخصية معينة ، فكتابة السيرة الذاتية إذن يمكن أن تتوسع إلى عدة أنماط يبوح فيها صاحبها بقصة حياته أو بجزء منها أو عن مواقف أثرت في نفسه أو فكره نحو أشياء بعينها أو ذكريات له ؛ وعلى هذا فقد يلتزم كتابتها في شكل مقال أو مذكرات أو اعترافات أو رواية أو يوميات وتكون كلها أنواعا من الأدب الشخصي يحتفظ المصنف وحده بحرية اختيارها .

السيرة في اللغة هي السنة أو الطريقة أو الحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره، والسيرة النبوية، و كتب السيرة مأخوذة من السيرة بمعني الطريقة و يقال قرأت سيرة فلان أي تاريخ حياته علي حد تعبير المعجم٧، ويكاد معني الترجمة اللغوي يلتقي مع معني السيرة فيعرف معجم المصطلحات العربية السيرة في اللغة والأدب بأنها : "فن ترجمة الحياة لشخص ما"٨ ؛فترجمة فلان أي سيرته و حياته، والجمع تراجم كما يقول معجم الوسيط. ٩

والسيرة في تعريفها العام هي بحث يستعرض فيه الكاتب حياة أحد المشاهير مبرزا من خلاله المنجزات التي تحققت في مسيرة حياته او حياة المتحدث عنه١٠ .

وتعد السيرة النبوية أقدم السير في الأدب العربي، وأولاها باهتمام المؤرخين والكتاب، لأنها المحور الذي تدور حوله حياة الإسلام و نشأته واتساعه ، وكان أول من استخدمها هو محمد بن إسحاق المتوفى عام ١٥٢ هـ في كتابه عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد انتهت إلينا سيرة الرسول في كتاب

السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ، الذي انتهت إليه السيرة التي كتبها ابن إسحاق ويرجع إليه الفضل في روايتها ، ثم توالت بعد ذلك السير الموجودة في كتب التاريخ العام ، وفي كتب الخطط والآثار، و في كتب الطبقات ومنها (تراجم) لطبقات الصحابة، والفقهاء والمفسرين والقراء ، والنحاة ، والشعراء، والصوفية ، والقضاة ، والأطباء ، والفلاسفة والحكماء، و كذلك السير الموجودة في الكتب الخاصة بتواريخ البلدان ورجالها ، وقد عالج العرب من خلالها ألوانا عدة من التاريخ والسير الغيرية ارتبط بالتدوين من جهة، والتأريخ من جهة أخرى ١١.

أما أول مرة ينتقل فيها مصطلح "السيرة" من سيرة النبي إلي سيرة غيره من الرجال فكانت في أواخر القرن الثالث الهجري علي يد أحمد بن يوسف بن الداية –الكاتب المصري –الذي ألف كتابا عن "سيرة أحمد بن طولون"١٢.

وفي الأدب العربي الحديث تبلور مصطلح السيرة الذاتية و" لئن كانت السيرة الذاتية في الأدب الغربي لم يشتد عودها ولم ترس قواعدها إلا بآخره ...فإن أمرها في الأدب العربي أظهر حيث إنها ظلت فنًا مجهولاً رغم ما قيل من أن أدبنا غير خال من هذا الضرب من التأليف ، ورغم ما قدم على ذلك من شواهد ليس لها من الخصائص الفنية المميزة للسيرة الذاتية حظ كثير أو قليل"١٣ .

وقد كُتبت على يد أشهر الكتاب العرب في العصر الحديث "ولعل ما يميز السيرة الذاتية العربية عن نظيرتها الغربية هو أن أغلب كتابها هم من كبار الأدباء والشعراء والمفكرين الذين رأوا الحياة بعين الفرد العادي وبعين المبدع الخلاق، بعين الفيلسوف المفكر والفنان الحالم، بعين السياسي الفاعل والعامل البناء، فكانت حياتهم نضالا فكريا وسياسيا وعلميا وعمليا جعل من سير حياتهم مناهج ينبغي على الناشئة أن يتمثلوا بها في حياتهم وأن يأخذوا منها العبر والدروس... والسيرة الذاتية تجربة إبداعية فريدة، ذلك أنّ المبدع في هذه الوضعيّة يتعرى أمام نفسه وأمام الآخرين ليقول ما كان يخفيه في صدره زمنا طويلا"١٤.

وأطلق عليها عز الدين إسماعيل مصطلح ترجمة الحياة يقول:" وترجمة الحياة (biography)هي الكتابة عن أحد الأشخاص البارزين لجلاء شخصيته ، والكشف عن عناصر العظمة فيها... فالترجمة في الواقع عملية تحليلية لكل مركز من عناصر كثيرة مختلفة هو الشخصية . ومن خلال هذا التحليل تبرز القيم الإنسانية التي تنطوي عليها الشخصية ، والتي يهم الآخرين الاطلاع عليها "١٥ .

كما عرف أدب السيرة الذاتية بأدب البيوغرافيا وهو أدب ظهر قديما وكان يتمحور في أول مدلولاته حول الاعترافات١٦ التي يقدمها كاتب أو شخص ما عن نفسه ، ولكنه "يتجاهل بعض الحقائق السيكولوجية البسيطة " ١٧ .

لا تفرق كتابة السيرة من حيث" المنهج بين رجل السياسة، والقائد أو الرجل المغمور" ١٨،فكاتب السيرة الذاتية هو إنسان على أي شاكلة كانت حياته أو ثقافته أو التيارات التي ينتمي إليها فهو يروي تجربته الإنسانية بطابع فني يلائم أدبية الجنس في حيز كتابة السيرة ، كما أن كاتب السيرة لابد له –إلى حد مناسب – من إخضاعها للمستوى الأخلاقي، كي تخرج كتابته إلى النور مقبولة دون عائق وبمواجهته للمجتمع قد يتخلى الكاتب لسيرته عن بعض الأحداث والمواقف والأفكار التي يرفضها الجمهور أو المجتمع أو المقياس الديني أو الأخلاقي، وغالبًا ما يحاول المبالغة في التخييل والتمويه بخصوص الأشخاص الذين مر بهم في حياته ،حتى لا تستحيل السيرة إلى مذكرات .

كما عرفت هذه الكتابة كذلك في العصر الحديث بالترجمة حيث إن الكاتب لها يترجم عن نفسه ويفصح عن كوامنها "وهي التي تصور العالم الخاص للمترجم لذاته ، سواء أكان عالمًا فنيًا أم علميًا"١٩،وفيها قد يكون الكاتب إما مدافعا عن نفسه أو عن حالة نفسية تشغله أو دفاعا عن فكر أو قضية إنسانية أو مجتمعية أو وطنية، لكن الفكرة الأم في الكتابة الذاتية هي نقل التجارب النفسية الخاصة ، إذن السيرة الذاتية ترجمة ينقلها صاحبها بأسلوب فني جمالي يتسق مع ذاتية الحدث.

تحولت الترجمة مع الوقت إلى السيرة الذاتية الروائية (Novelized autobiography)، وفيها يجمع الأديب بين الواقعية (حياته) و فنية الرواية ، وهناك فارق بين الروايات السير ذاتية التي قدمها أصحابها بشكل صريح دون أي مراوغة وبين تلك التي كتبت وأصحابها يتوارون وراء الشخصيات التخييلية ووراء أبطال رواياتهم . ويبثون حوادث حياتهم وأخبارها في أثناء السرد.

السيرة الذاتية هي إجابة أو محاولة للإجابة عن سؤال الوجود؟ لماذا نحن هنا ؟ ما جدوى وجود الإنسان في الحياة ، وذلك عبر تجربة عاشها الأديب المبدع بحلوها ومرها، ودروباً خاضها وعقبات تخطاها ، تلك التجربة التي يقرربإرادته الحررة أن ينقلها للقارئ منسلًا من مشهد حياته ، يشاهده ثم يصيغه ثم يكتبه ، هذا المشهد يمتزج فيه الحاضر بالماضي، يقف الأديب في الحاضر مشاهدًا الماضي بكل مراحله وذكرياته وتفاصيله الصغيرة والكبيرة ، الطفولة ثم الشباب ثم الشيب .

فالكتابة عن الذات تجمع عدة تمازجات وتفاعلات بين الذات والزمن والماضي والحاضر والسارد والفاعل والكاتب والقارئ ، وكلها تنبع من أعماق نفس الأديب ، لذا نجد فيها خصوصية فنية قد لا تتشابه مع الأجناس الأدبية الأخرى لاتساع مجالها ، وواقعية أحداثها ، وارتباطها بالحس والشعور الإنساني ، ووقوف الإنسان في مواجهة الحياة والعالم ، وانتصاره في معركة الوجود ، ولولا أنها معركة ، ولولا أن الأديب انتصر فيها ، ما أفرزت لنا شخصية الأديب بقيمتها الإنسانية والأدبية .

والسيرة الذاتية تلتقي مع الرواية و تظل العلاقة بين السيرة والرواية أكثر التباسا فكثيرا ما ننظر إلى الرواية على أنها في وجه من وجوهها جنس سير ذاتي ، وتطل علينا كتابة السيرة الذاتية غير منفصلة عن الذات الكاتبة ؛ وهي بذلك تستمد امتداداتها من الينبوع الذاتي والشخصي لكاتبها فتأتي الكتابة مغرقة في الأنا ؛ حيث يحاول كاتب السيرة الذاتية تدوين حياته الشخصية والأدبية والسياسية والفكرية فيكون بذلك مضطرا إلى العودة إلى الماضي البعيد ، وقد استفاد كاتب السيرة الذاتية من إنجازات الرواية الفنية استفادة كبيرة مما أحدث تداخلا بين الجنسين٢٠.

يعد فن السيرة الذاتية بمفهومه الحديث من أحدث الفنون الأدبية ؛ فهو عمل أدبي قد يكون رواية، أو مقالة فلسفية، يعرض فيها المؤلف أفكاره، ويصوّر إحساساته بشكل ضمني، أو صريح ٢١ ، أما فن الرواية فهو من أكثر الأنماط الفنية قربا من السيرة الذاتية ؛ لأنه فن يتسم بالمرونة والقدرة على استيعاب أنواع أدبية أخرى دون أن يتأثر البناء الروائي، فهو بمثابة بوتقة تذوب فيها الأنواع الأدبية الأخرى من شعر ونثر ؛ لذلك فهناك الكثير من نقاط الالتقاء والتعانق بين الرواية والسيرة الذاتية كمثل ذلك التقارب المستحدث بين مناهج التراجم والأسلوب الروائي٢٢ .

إذن تقدم السيرة الذاتية نفسها باعتبارها تقديم شخص حقيقي لنفسه وبصوته الخاص، وفي هذا النوع من السرد تجد الراوي والمؤلف وصاحب التجربة جميعهم شخصاً واحداً .

التخييل الذاتي مهاد نظري :

ظهر في أواخر القرن العشرين وعلى وجه التحديد "قبل ثلاث وعشرين سنة من انصرام القرن الماضي ظهر التخييل الذاتي (Autofiction) على يد الكاتب والناقد الفرنسي "سيرج دبروفسكي Serge Doubrovsky "ولم يلبث أن تلقفه النقاد والدارسون بين مستحسن ومستهجن، ومؤيد ورافض، ودار حوله جدل كبير" ٢٣ ، وواكبه استبدال الأدباء التخييل الذاتي بالسيرة الذاتية ، فصاروا يطلقون على أعمالهم الأدبية التي تحكي سيرة ذاتية مصطلح التخييل الذاتي بدلا من السيرة الذاتية والرواية

السير ذاتية، أو السرد السير روائي كما عرف من قبل فأصبح التخييل الذاتي وفقًا لنقاده في سياق ما بعد البنيوية ، أصبح هو السيرة الذاتية الجديدة" إن التخييل الذاتي –وفق إيزابيل كريل –يندرج في إطار الكتابة الميتاتخييلية ، لم تعد الكتابة متوقفة على الذات كما هو الحال في السيرة الذاتية ، وإنما كتابة عن كتابة حول الذات" ٢٤ .

يمكن أن يعد التخييل الذاتي وجهًا جديدًا للسيرة الذاتية أو "يدرك التخييل الذاتي بصفته سيرة ذاتية تستمد نسغها من التحليل النفسي ، وتعبيرًا عن لاوعي النص السير ذاتي أو عن وجهه الخفي"٢٥ .

ويمكن أن يطلق عليه السرد المرجعي، فهو يتمتع بسردية الرواية، ومرجعية التاريخ والواقع، وليست مرجعية تاريخية عامة، إنما مرجعية ذاتية " يعتبر جينيت التخييل الذاتي سردًا مرجعيًا مميزًا بين مقولتين (تخييلات ذاتية حقيقية .. مغرقة في التخييل)، وتخييلات مزيفة... أو بعبارة أخرى سيرة ذاتية محتشمة" ٢٦ ، هي سيرة مقنعة تنقل الماضي الذاتي في إطار إبداعي.

يقول دبروفسكي موضحًا تعريفه للتخييل الذاتي : " "إن تصوري عن التخييل الذاتي ليس هو تصور فنسنت دوكولونا عمل أدبي يقوم الكاتب خلاله باختلاق شخصية ووجود، محتفظا بهويته الحقيقية "اسمه الحقيقي" إن الشخصية والحياة المذكورة هنا هي شخصيتي وحياتي وشخصيات أناس حقيقيين يشاركونني حياتي"٢٧ .

وهناك سؤال يطرح نفسه ، ما حقيقة التخييل الذاتي هل هو جنس أدبي جديد؟ هل يحل محل السيرة الذاتية ؟ أم هو مجموعة من السمات تتوفر في نوع من أنواع الرواية السيرذاتية ؟

هل يقترب في سماته من الرواية ؟ أم يقترب أكثر من السيرة الذاتية أم يمزج بينهما ؟هل أسفر تصور دوبروفسكي عن سمات واضحة ومعايير محددة تمكن النقاد من تصنيف الأعمال الأدبية تحت هذا الجنس الجديد ؟

"إن الكاتب دومًا هو بطل قصته ... لكنه يضفي التخييل على وجوده بمعطيات واقعية ، ويظل أكثر اقترابًا من احتمال الوقوع ، وينسب للنص حقيقة ذاتية إلى حد ما " ٢٨ .

وفق بعض النقاد٢٩ هناك سمات عامة لرواية التخييل الذاتي منها :

أ – سمة تخييلية: إذا كانت السيرة الذاتية تكترث بحياة العظماء، فإن التخييل الذاتي يهتم بحياة الناس العاديين.

ب -سمة موضوعاتية: يتقاطع التخييل الذاتي مع باقي أشكال الكتابة عن الذات في كونه يسرد الحياة "الحقيقية" للمترجم له ، ولكنه يتميز عنها في انزياحه عن السجل المرجعي.

لكننا وبغض النظر عن الاختلاف بين دبروفسكي وكولونا وجيرارد جينيت في تصنيف التخييل الذاتي ، يمكننا أن ننظر بإعجاب إلى التخييل الذاتي من منظور الدور الذي قام به ، كونه أعاد البريق إلى بعض المفاهيم التي انزوت وبهتت في الخطاب النقدي الحديث ، وحل محلها بنية جديدة من المصطلحات ترغم الظواهر الأدبية وتخضعها لقوانين العلم ، مثلما فعلت الشكلانية والبنيوية ، وكذلك السيميائية وقوانين الشعرية ، التي كادت أن تقصي الذات ، وتجعل الأدب لا إنساني ، وتغيب مفاهيم مثل الأنا والصدق ، والتجربة الشعورية ، والحقيقة ، التي تنتمي للمؤلف وكادت تموت مع دعوات موت المؤلف .

من السيرة الذاتية إلى التخييل الذاتي :

كل شيء بدأ مع الكاتب والناقد الفرنسي سيرج دوبروفسكي-كما سلف- سنة 1711 عندما صنف كتابه والمعنون بـ (أبناء- (Fils، صنفه بوصف:(تخييل ذاتي) كجواب عملي على السؤال الفعال الذي طرحه فيليب لوجون في خضم تأسيسه لمشروعه الضخم حول السيرة الذاتية: "هل يمكن للبطل الروائي أن يحمل اسم المؤلف نفسه؟"٣٠

. يجيب دوبروفسكي في رسالته إلى لوجون بالقول: "لقد أردت، برغبة عميقة، أن أملأ الفراغ الذي خلفه تحليلكم، وهي رغبة زامنت فجأة نصكم النقدي مع ما أنا بصدد كتابته٣١ .

بينما تتمتع الكتابة السير ذاتية بخاصية مطاطية بين كتابة الأديب عن جزء من حياته، أو سرد يومياته، أو تجارب يقدمها ويفصح عنها ؛ وهو هنا يروي قصته بنفسه .

بعد ملاحظة البروز اللافت للنظر للأنا في الأعمال الأدبية في مرحلة ما بعد الحداثة، أو بالأحرى الحضور القوي للذات، فتح تصنيف دوبروفسكي الباب على مصراعيه لمحاولات الفصل في الجدل الذي دار حول هذا البروز المفاجئ ، ومع هذا التصنيف ظهرت أسئلة بديهية مفادها لماذا خطر هذا التصنيف لدبروفسكي؟ ولماذا أدار وجهه عن السيرة الذاتية؟

يقول دوبروفسكي مفسرًا موقفه من السيرة الذاتية: "سيرة ذاتية؟ لا ... إنها امتياز خاص بالناس المهمين في هذا العالم، في خريف أعمارهم، بأسلوب جميل ، أما (التخييل الذاتي) تخييل

أحداث ووقائع شديد الواقعية، فهو إيداع لغة المغامرة بين يدي مغامرة اللغة، بعيدًا عن التعقل وعن القوانين الكلاسيكية للرواية"٣٢ .

لقد رأى أن السيرة الذاتية لا يكتبها الشخص إلا بعد تحقق شهرته وثبوت مكانته في المجتمع وعبقريته واهتمام الجمهور به، وهو يعمد إلى كتابة عمل يحكي من خلاله قصته ، لكن يجب أن يليق بتلك الأهمية، وذاك الاهتمام، يجب أن ينطوي على الأحداث بمستوى عال من الفنية والاحترافية ، ويكون التركيز فيه على سمات خاصة تميز تلك السيرة عن غيرها من الأعمال القصصية ، كما يتميز صاحبها عن غيره من المشاهير والشخصيات المهمة في عالمه أما التخييل الذاتي –من وجهة نظره – يكتب في حالة تحرر من تلك القواعد والقيود ، أو على حد تعبيره "إحلال الذات محلا إشكاليا يتذبذب بين الواقع والخيال، الوجود والفناء، الغياب والحضور، الغموض والتجلي في الآن نفسه، بما يجعل العملية السردية برمتها محض بحث أبدي عن الأنا المفقود، عن الذات التي أصبحت فجأة موازيا للعالم،والمعنى الذي أصبح مماثلا للحياة في أعمق صورها غموضًا ، وتخفيًا ، واستعصاء على الفهم والتأويل ، أما الثاني فهو كما عبر عنه دوبروفسكي ببلاغة ناصعة، إحلال مغامرة اللغة محل لغة المغامرة، أي نقل مركز الثقل من المغامرة/ الحكاية إلى الأداة / لغة الحكاية، ومن ثم تنقلب السيرورة السردية رأسًا على عقب، لتوغل في لعبة اللغة وإمكاناتها وإغراءاتها اللامحدودة ، تصبح الكتابة ذريعة لنفسها لا لشيء وراءها، تحاول أن تتخفى كالزجاج المعشق وراء تشكيلات الرموز عن أداء مهمتها الكشفية عما وراء الزجاج من حياة واقعية"٣٣ .

والواقع أن تلك السمات التي خلعها دبروفسكي على التخييل الذاتي ، تجعل إعادة التصنيف لكثير من السير الذاتية ، محل مراجعة ونظر ، لأن الألم المصاحب لاسترجاع الماضي والتجارب الشعورية السابقة لصاحب السيرة ، أو للذات ، يخلق إمكانات هائلة لطرق التعبير باستخدام اللغة ، وهو ما يحدو بصاحبها نحو التجلي الإبداعي الذي يمزج بين الواقع والمتخيل، وينتج إبداعًا فنيًا يتردد بين التصريح والتلميح ، ويمزج بين الواقعية والخيال مما يثبت للنص الخصوصية والامتياز.

هذا بالنسبة لدبروفسكي ، "أما جيرارد جنيت فيميز تمييزا معياريا صارما قائما على أساس الصحة والزيف، وضمان العقد الإعلامي، بين صنفين من التخييل الذاتي: التخييل الذاتي الحقيقي الذي يمكن توصيف مضمونه السردي بالأصالة التخييلية، ويمثل له برواية الألف (l'Aleph) لبورجيس وبالكوميديا الإلهية لدانتي، أما الصنف الثاني فيصفه توصيفا معياريا قاسيا باعتباره تخييلا

ذاتيا زائفا ، لأنه ليس تخييلا إلا من أجل العبور أو الجمركة، بمعنى آخر، ليس سوى سيرة ذاتية تشعر بالعار" ٣٤

إذن يخرج التخييل الذاتي بهذا التمييز من جيرارد جينيت ، يخرج من التطلع أو الطموح إلى تخطي عتبة التصنيف الأجناسي واحتلال مكانة راسخة ضمن خريطة الأنواع الأدبية ، كما يمنع استنباط الآليات الواضحة التي تميز التخييل الذاتي من الأجناس التي تقع معه في طبقة واحدة.

يقف التخييل الذاتي بين جنسين أدبيين متأصلين ولا جدال حول تصنيفهما الآن ، وهما الرواية والسيرة الذاتية ، هو يتخذ من الخيال الإبداعي منطلقًا ، وكذلك يستمد من الواقع الذاتي مرجعًا يستند على التخييل في الخروج من الحدود، والتحليق فوق الأرض، كما يستمد الثبات والرسوخ من الذات وحوادث الزمن، فالتخييل الذاتي : " ينزاح عن الواقع ويعيد تشخيصه بطريقة خيالية، ويتمرد على مواصفات الميثاق السير ذاتي".٣٥

إذن يمكن اعتبار التخييل الذاتي" ممارسة إشكالية محورة عن السيرة الذاتية، إشكالية من حيث إخلالها بالعقد الأوتوبيوغرافي الذي حدده لوجون لهذا النوع من الكتابة، ومحورة عنها من حيث التزامها بأهم مكونات السيرة الذاتية المتمثلة في الهوية الإعلامية للشخوص، وفي الحرص على الوفاء للحقيقة والواقع ما أمكن الذاكرة نفسها أن تكونه، مع الأخذ في الاعتبار بشتى العوامل النفسية والعصبية والفنية التي تتحكم في صياغة الاسترجاع والتذكر، وفي قوانين الكتابة وآلياتها ومقتضياتها " ٣٦ .

إشكالية التصنيف الأجناسي :

محمد برادة وعبد القادر الشاوي وواسيني الأعرج٣٧ هم الكتاب العرب الذين صنفوا أعمالهم ضمن مصطلح التخييل الذاتي حتى الآن ، ولكن هذا لا يمنع من إمكانية إعادة قراءة الأعمال القديمة وتلمس ملامح التخييل الذاتي فيها ، فصار النقاد يطلقون على بعض الروايات مصطلح التخييل الذاتي مثل جيرارد جينيت حيث :" لم يتوان جنيت عن إطلاق صفة التخييل الذاتي على رواية مارسيل بروست الشهيرة (البحث عن الزمن الضائع)" ٣٨ .

مما يدفع ناحية إمكانية إعادة التصنيف الأجناسي لكل من الرواية والرواية السيرذاتية والنظر بعين الشك لانتماء النصوص السردية ، لاسيما التي اختلف في نسبتها بين الرواية والسيرة الذاتية، أو السرد السيرروائي، فقد "دفع جنيت، بموقفه السالف من (البحث عن الزمن الضائع)، سواء عن قصد

أو عن غير قصد، إلى تكريس الشك المنهجي كقاعدة أولية في مقاربة كثير من النصوص التي اعتبرت نصوصا روائية مستقرة في جنسها لدهور طويلة، ولم يعد يكفي انطوائها النوعي تحت جنس الرواية ليجنبها السؤال التفكيكي عن شرعية الانتساب الذي ينبغي أن تسنده مسوغات داخلية من لحمة النص ذاته، فقد تورطت الرواية والتبست مع أجناس قديمة، وأخرى ناجمة، في خضم التداخل النوعي المتشظي تحت نظريات ما بعد الحداثة التي قوضت يقينيات شتى باستثناء يقين الشك والارتياب والمساءلة إن صح القول"٣٩ .

وهذا تمشيًا مع مقولات موت المؤلف التي ترغمنا على قراءة النصوص بمعزل عن أصحابها ، فكيف إن كانت النصوص في موضوعاتها تكتب في الأساس عن أصحابها ، أيمكن لنا أن نعزلهم عن نصوصهم كذلك ؟ وإن أمكن هل يقربنا ذلك من النصوص أم يبعدنا عنها؟ هل يقربنا من روح الأدب أم يبعدنا عنها ؟ وهذا ما دفع العميد لرفض نسبة الأيام لجنس أدبي بعينه .

فقد سئل الدكتور طه حسين عن نسبة هذا الكتاب إلى جنس أدبي بعينه لكنه رفض نسبته "وكأن حسين قصد إلى الإبقاء على هذه البلبلة قصدًا ؛ فحين طلب منه أحد النقاد وضع حد لهذا الاختلاف في تصنيف الأيام أجابه :"لا أدري هل ترونها مشكلة حقًا ؟ رواية أو سيرة ذاتية ؟ وما الفرق ؟ لتكن الأيام رواية أو سيرة شخصية فهذا لا يعنيني وإنما يعنيكم أنتم " "٤٠ .

كذلك رأى بعض النقاد أن كتاب الأيام – في كثير من سماته – قد لا ينطبق عليه تعريف السيرة الذاتية بحذافيره لأن"هذا التعريف وإن صح في عدد كبير من السير الذاتية فإنه لا يصح في بعضها ومنها كتاب الأيام ، وفيه من التلاعب بالضمائر ما جعل الناس يختلفون في تصنيفه إذ هو عند بعضهم رواية ، وعند البعض الآخر سيرة ذاتية ، وعند فريق ثالث رواية سير ذاتية ، فهذا عبد المحسن طه بدر يتحدث عن كتاب الأيام في فصل وسمه برواية الترجمة الذاتية ، فيعتبره ملتقى للرواية والترجمة الذاتية ... وهو يرى أن طه حسين جمع في كتابه هذا بين الروائي وكاتب الترجمة والباحث"٤١ .

هنا اختلف النقاد بين نسبتها إلى الرواية أو السيرة الذاتية ، فهل نستطيع إرجاعها إلى التخييل الذاتي ؟

من وجهة نظر شوقي ضيف تنتمي الأيام للترجمة الشخصية أو الترجمة ذاتية وهي الكتاب الرائد في هذا الفن في العصر الحديث :"حتى إذا كان العصر الحديث رأينا الترجمة الشخصية عندنا تتطور تحت تأثير ما قرأ أدباؤنا وكتابنا الغربيين من تراجم كاملة عن حياتهم ، وقد وصفوها فيها من جميع أطرافها ، بعيوبها ومحاسنها ، بل لقد تحولوا بها إلى اعترافات صريحة بدون أي تحرج أو تصنع ، وبذلك غذت الترجمة الشخصية عندهم ضربًا من القصص الحي البديع ، وربما كان طه حسين خير من جارى الغربيين في هذا المضمار ؛ فقد كتب عن طفولته وشبابه في الأيام بدون أي تمويه، وأعطانا صورة تامة لكل ما اضطرب فيه بسبب فقده لبصره في سن مبكرة ، ولكل ما أثر فيه بسبب نشأته الأولى ، وسكب على أيامه كثيرًا من فنه ، فجاءت قطعة أدبية رائعة "٤٢ .

يمكن أن نأخذ من رأي الدكتور شوقي ضيف أن الأيام يمكن أن يطلق عليها هذا اللون وهو (القصص الحي البديع) وهذا الوسم يمكن أن يساوي مصطلح التخييل الذاتي، فهما يحملان العناصر نفسها ، هي قصة إذن تحمل سمة التخييل ، حية إذن هي من الواقع وهي ذاتية لأنها تخص ذات المبدع ، وفي عناصرها الفنية مزج وتناغم وتردد بين الرواية والترجمة –ويمكن أن نقول– والتخييل الذاتي أيضًا ، كما تكمن أهمية الأيام في أنها أول صور الترجمة الشخصية الحديثة .

أما عن تعذر تلمس العوامل التي اشترطها دوبروفسكي عن التخييل الذاتي في الأيام فقد اشترط التطابق بين الراوي وبين المؤلف ليتحقق التخييل الذاتي من وجهة نظره لأن الأيام قامت على الفصل بين الكاتب والبطل والراوي فهي تخص الجزأين الأول والثاني فقط " على أن طه حسين قد تراجع في الجزء الثالث من الأيام عن جزء من هذه الصورة القائمة على انفصال الكاتب عن البطل والراوي ، فرغم أنه حافظ على عدد الفصول ؛ وهو عشرون فصلًا ، وعلى ضمير الغائب ، فإنه عمد إلى وسم الفصول بعناوين استخدم في بعضها ضمير المتكلم ... أما في الجزأين الأولين من الأيام فإننا نلاحظ بين أعوان السرد طلاقًا محيرًا ، فالشخصية مختلفة عن الراوي ، وكلاهما مختلف عن الكاتب " ٤٣.

ويمكن أن نعزو هذا التراجع لاعتبار طه حسين نفسه منفصلًا عن ذاك الصبي وذاك الكهل وذاك الفتى لذا استعمل ضمير الغائب، وعندما اقترب العهد من ذاته وقت كتابة الأيام عاد لاستخدام ضمير المتكلم لقرب الشخصيتين من بعضهما ، وكأنه تغلب على نفسه القديمة وظهر لنفسه من نفسه أمارات الانتصار على الماضي والتعافي من آلام الطفولة ، وهذا يمكن تلمسه كذلك عند ديكنز فقد وضح أن كوبر فيلد تخطى آلام الطفولة كذلك وانتصر على انهزاماته القديمة ، مما دفعنا نحو تلمس

سمات جديدة وتصنيف أدبي جديد للأيام، استنادًا إلى هذا التردد والفصل بين ضمائر المتكلم والغائب وإلى غيره كذلك ، يقول أندريه موروا بأن:" السيرة الذاتية لا تحرف فقط من خلال النسيان، إنما تحرف كذلك من خلال التأثير الطبيعي للرقيب الذي تمارسه الروح على الأشياء التي لا تستريح لها، فنحن نسترجع الذكريات التي يلذ لنا استرجاعها، ونحن نلقي إلى النسيان تلك التي تجرحنا، ونحن نحورها بوعي، ونصنع منها قصة أكثر جمالًا وحيوية وإثارة، مما كانت عليه الأحداث الواقعية، والنجاح الذي تلقاه القصة المحورة يشجعنا على أن ننمقها ، و شيئا فشيئًا تصير هذه القصة هي مرجع ذكرياتنا"٤٤.

في الأيام تعمد طه حسين كسر أفق التوقع عندنا ومزج بين استخدام الضمائر في الأجزاء الثلاثة حتى نتساءل ونظل نتساءل وربما كان السبب هو صعوبة البوح على الإنسان في"مختلف مراحل تطور وعيه لأن الإنسان بطبعه مجبول على حب إظهار ما يعتمل في دواخله، وهو إلى ذلك مشدود حتى في لحظات إعماله الكتمان الذي يمكن بسهولة ويسر قراءته على أنه نوع من البوح العكسي بما تروم النفس إبقاءه طي الكتمان، إلى رغبته في ترجمة أناه"٤٥، وهذا ما دفع تشارلز ديكنز للعدول عن كتابة السيرة الذاتية الخاصة به بشكل صريح لما اختبره من آلام ألمت به مع حضور الماضي الصعب والذكريات القاسية ،فقرر أن يكتب بدلًا منها ديفيد كوبر فيلد لقد استعان بديفيد ليحل محله في تحمل استرجاع الماضي المؤلم ويروي الحكاية على لسانه ، وكذا طه حسين في الأيام الذي استخدم (صاحبنا) ليكون بطلًا لأيامه .

كما يقابلنا في (ديفيد كوبر فيلد) التجربة نفسها ، تجربة تردد النص الأدبي بين الرواية والسيرة الذاتية ، ونضيف كذلك والتخييل الذاتي ، ولا يعنينا في هذا المقام إثبات أن تفاصيل حياة ديكنز هي نفسها بحذافيرها كما صورها في حياة كوبر فيلد ولكن ما يعنينا هو الأثر النفسي الذي خلفته هذه الحوادث على ديكنز والتي أثرت في تكوين شخصيته وبالتالي في إبداعه كما ظهر في رواياته وفي رواية ديفيد كوبر فيلد على وجه الخصوص.

كان ديكنز٤٦ قد شرع في كتابة سيرته الذاتية عام 1840 م، بمشاركة صديقه جون فورستر ، لكنه اندهش للألم الشديد الذي ألم به حينئذ ، حتى أحرق ما كتب ولم يتم الكتابة ، وقرر أن يستعين بديفيد كوبر فيلد لينوب عنه في مواجهة الماضي، واستحضار الأحداث وروايتها ، ونقل التجارب .

إذن ذهب النقاد إلى أن رواية ديفيد كوبر فيلد تمثل رواية سيرة ذاتية لتشارلزديكنز٤٧ .فتعد شخصية ديفيد كوبر فيلد هي الأنا البديلة لتشارلز ديكنز ليس بسبب الأحداث بين الشخصيتين لكن بفضل التشابهات النفسية المكونة للشخصية.

كما تثبت التشابهات أن السمات التخييلية للشخصية الروائية من سلوك وأفكار وربما طريقة الكلام والمواقف التي ينقلها الروائي ويتعمد فيها نقل سماته هو الشخصية ، فتصبح الشخصية التخييلية بديلة لشخصيته الحقيقية ، أو يعمد هو نفسه إلى نقل أفكاره ورؤاه وتجاربه الشعورية من خلال هذه الشخصية الجديدة ، وهو ما يهدف إليه التخييل الذاتي .

كما أشاروا إلى أن الرواية محاولة من ديكنز لاكتشاف ذاته٤٨ ومواجهة مخاوف قديمة سيطرت عليه منذ الطفولة، ولم يكن من سبيل للتخلص منها سوى بنبشها وإظهارها للتمكن من هزيمتها.

يخبرنا ديكنز٤٩ بحبه الشديد لديفيد كوبر فيلد الطفل يقول٥٠: "من بين جميع كتبي، أعد نفسي – وهذا لا يعز على التصديق – أعد نفسي أبًا لكل طفل من الأطفال في رواياتي ، ولكن كجميع الآباء فإن عندي في أعماق قلبي ميلًا شديداً ناحية أحدهم ؛ وهو (ديفيد كوبر فيلد)" . كما قيل إن٥١ :" رواية ديفيد كوبرفيلد لطالما كانت الطفل المفضل بالنسبة لتشارلز ديكنز " ، وبما أن المعروف أن أعمال ديكنز تنقل تجربته الذاتية فإنه يمكن اعتبار رواية ديفيد كوبر فيلد بمثابة سيرة ذاتية تخييلية لتشارلز ديكنز ، وهذا الجنس الأدبي يعد قصة حياة شخص حقيقي يروي قصته بنفسه وبصوته الخاص، ويقوم في الرواية بدور السارد .

تجدر الإشارة إلى أن مستويات السيرة الذاتية في رواية ديفيد كوبر فيلد ، لا تمثلها الأحداث والشخصيات بعينها ، ولكن تلك المستويات تمتد وتتوسع لتشمل جوانب تاريخية واجتماعية من الحياة الإنجليزية في ذلك العصر ، فقد عاش ديكنز في العصر الفيكتوري وعانى من التغيرات السياسية والاجتماعية في وقته ، ولذلك عكس في الرواية التفاعل والصراع بين الطبقات الاجتماعية في الرواية ، والتي انطوت على بعض التناقضات ، مثل تجربة (ج ستيرفورث) مع (إيميلي) ، وكذلك تجربة (يورياه هيب) مع (آجنس) .

في العتبة الأولى وهي العنوان نرى أن ديكنز اختار نفس حروف اسمه بشكل معكوس٥٢ (D/C =ديفيد كوبرفيلد) ، (C/D= تشارلز ديكنز) .

كذلك فإن حياة٥٣ الأديب العالمي الفذ تشارلز ديكنز تتغير جذريًا في مرحلة مبكرة جدا ، من طفولة سعيدة إلى كابوس مرعب ، بعدما انتقل من إقامة هانئة جميلة في بلدة تقع جنوب إنجلترا ، انتقل مع أسرته إلى لندن وفيها تم إيداع والده إلى سجن المَدينين، وانتهى الأمر بالطفل تشارلز بالعمل في مستودع لتلميع الأحذية وحده في المدينة ، دون رعاية .

والأمر نفسه بالنسبة لديفيد كوبرفيلد –كما في ملخص الرواية– فقد عاش سنواته الأولى في سعادة مع أمه كلارا ومربيته بيجوتي ، ولكن السيد مردستون دخل حياته وحولها جحيمًا يقول:" نهض مستر ماردستون من مقعده .. وأخذ الكتاب.. وضربني به على رأسي .. وألقى بي خارج الغرفة ، هكذا كنت أتلقى دروسي يومًا وراء يوم .. وحتى عندما كنت أحفظ الدروس جيدًا .. كان مستر ماردستون وأخته يكلفاني بمزيد من الواجبات .. وكانا لا يطيقان أن يرياني غير مكلف بواجب . وهكذا تبددت سعادتي .. وأصبحت كثير الصمت .. ومع ذلك فقد كانت سعادتي الوحيدة في الأوقات التي أقضيها متفحصًا الكتب التي تركها أبي ، والتي عثرت عليها في حجرة مجاورة لحجرتي .. عثرت على روبنسون كروزو ، وعلى كتب الرحلات والعديد من الكتب الأخرى .. وكانت هذه الأوقات هي العزاء الوحيد الذي يساعدني في الهروب من شقائي وتعاستي "٥٤ .

وقد حاول الابتعاد عنهم وانعزل وتقوقع على نفسه ، ليس له أنيس سوى الكتب يقول:" حاولت أن أبعد نفسي عن طريقهم قدر استطاعتي، كانت تمر علي الساعات منزويًا في غرفتي ، منكبًا على كتاب من الكتب "٥٥ .

وهناك كذلك شخصية السيد ميكاوبر ، الذي غرق في الديون ووضع في السجن وترك عائلته الكبيرة لكنه في الحقيقة رجل شريف ، هو المقابل للأب في الحقيقة لتشارلز ديكنز ، والذي لم يمت قبل ولادته كما مات والد دايفيد ، وهناك المشاكل المالية التي واجهتها عائلة (ميكاوبر)، هي نفسها الضائقة التي ألمت بعائلة (ديكنز) ، جون وإليزابيث ديكنز ، وقد استدعى تشارلز ديكنز تلك الذكريات المؤلمة من بيع كتبه الخاصة وهو طفل صغير لمساعدة أسرته ، وقد فعل كوبر فيلد الشيء نفسه مع عائلة ميكاوبر وكان يأخذ الممتلكات الخاصة بهم ليبيعها لهم ؛ لذا فقد قام بتوظيف شخصية حقيقية

لها تجربة حياتية عايشها هو نفسه ، في صورة تخييلية في المتن الروائي؛ وهي سمة ثابتة في نص التخييل الذاتي .

وهناك كذلك شخصية دورا التي توازي شخصية زوجة ديكنز(ماريا بيدنيل) ، وها هو دافيد يصير كاتبًا ويروي قصة حياته ، ويقوم بدور الراوي أو السارد في القصة كما يفعل ديكنز –بديهيًا– ويروي جوانب من قصة حياته موظفة توظيفًا سرديًا تخييلياً في رواية ديفيد كوبرفيلد .

والواقع أن تلك التجربة الواقعية تمثل الجانب المظلم من معاناة ديكنز في طفولته مرورا بمرحلة المراهقة ومنها إلى الشباب ، فقد اختبر العديد من التجارب الصعبة ، وكثيرا من الحزن والمعاناة عبر أطوار حياته واكتسابه للخبرات الحياتية من طور الطفولة البريئة إلى التمرس بأحوال الحياة وصعوباتها وقساوتها ، وهو ما خلق منه أديبًا مبدعًا ، كما هو الحال بالنسبة لأديبنا الدكتور طه حسين.

عندما قرر ديكنز أن يضع ذكريات طفولته وشبابه في حياة بطله كوبر فيلد ، وضع قصته الخاصة ليس فقط ليشفي جراحه المفتوحة ، وليتحرر من الأحمال الثقال على كتفيه طوال حياته، وإنما ليشاركنا ما وصل إليه بعدما واجه كل تلك الصعاب وهو ما شاهدناه في تجربة الأيام كذلك .

إضافة إلى أن دافع٥٦ ديكنز في وضع محطات من سيرته في قصة ديفيد كوبر فيلد ، كما كان هذا الدافع مؤلمًا ، كان كذلك مدعاة للفخر ، فقد شعر ديكنز أثناء الكتابة بالأمان حيال موقفه من العالم وموقف العالم منه ، فقد تغلب على كل تلك الصعاب التي ربح المعركة ضدها كما يربح البطل معركته ضد أعدائه ، وكلما شعر بالحسرة والمرارة أكثر باسترجاع تلك الذكريات كلما زاد فخره واعتزازه بنفسه التي صارعت للبقاء والوجود والنجاح رغم ما قاست وما عانت، وفي تلك المرحلة يكون قد وصل إلى أقصى درجات التفاهم والتسامح مع النفس ومع الماضي، ويكون قد محا كل مشاعر الرفض والعار والذنب التي سببت له صدمات لطالما حمل أثرها على عاتقه ، وقد فعل ديكنز بنجاح وشارك معنا تلك التجارب وذاك الفخر من خلال ديفيد الذي نجا من ماضيه المؤلم وعاش بسعادة وسلام.

إذن يمكن القول إن تشارلز ديكنز رسم شخصية ديفيد كوبرفيلد، لينقل من خلالها اللبنات التي أثرت في بناء شخصيته المبدعة ، وعليه تكون (ديفيد كوبر فيلد) ليست سيرة ذاتية تقليدية، وإنما رواية تتضمن تخييلًا ذاتيًا للشخصية وبعناصر السيرة الذاتية .

الأيام –طه حسين :

طه حسين عميد الأدب العربي خير من يقال عنه (غني عن التعريف)، أحد أشهر أدباء مصر والعالم ، حامل لواء العلم الحق المكتسب، بدأ عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين كتابه الأيام في صورة مقالات نشرت في مجلة الهلال بين عامي 1926و 1927. وهو كتاب مكون من ثلاثة أجزاء ومقدمة ، ويعد أول "سيرة ذاتية أدبية ،بالمعنى الحديث ،في الأدب العربي، وأول كتاب في الأدب العربي الحديث يكتسب اعترافا دوليا ويترجم إلى لغات عدة " ٥٧ كما أنه يعد المرجع الأول في الترجمة لحياة صاحبه.

والكتاب يناقش عدة قضايا مثل مواجهة الفرد للمجتمع والأفكار السائدة فيه ، مجتمع القرية ، مجتمع الحارة في العاصمة ، مجتمع التعليم الأزهري ، مجتمع التعليم الجامعي ، ثم المجتمع الأجنبي الغربي ، كما تمكننا الرواية كذلك من الوقوف على الفكر الديني الناضج للكاتب جراء معاناته منذ الصغر من رموز دينية ، وربما تعرضه للظلم التاريخي والنقدي حتى الآن بسبب بعض الآراء ، كما نسمع فيها صوت الثائر داخل الوطن الأصغر (أسرته) والوطن الأكبر بلده ، لاكتشاف حجم المعاناة التي قاساها طوال حياته .

"للأيام في السيرة الذاتية الحديثة مكانة لا تتطاول إليها أية سيرة ذاتية أخرى، في أدبنا العربي، وخاصة في الجزء الأول منه ، لمزايا كثيرة منها : تلك الطريقة البارعة في القص، والأسلوب الجميل، والعاطفة الكامنة في ثناياه المستعلنة أحيانًا حتى تطغى على السطح؛ وتلك اللمسات الفنية في رسم بعض الصور الكاملة للأشخاص، والقدرة على السخرية اللاذعة في ثوب جاد حتى تظهر وكأنها غير مقصودة "٥٨ .

ظهر جلياً في الأيام تحقيقها لوظيفتين أساسيتين " أولاهما أنها تعبير عن الذات في مرحلة التكوين – وهي أهم مراحل العمر. وثانيتهما أنها تعبير عن موقف نفسي خاص ، وعن موقف فكري عام ...ثم الإكبار من شأن الفكر الإنساني والإلحاح على حريته" ٥٩ .

منح طه حسين نفسه قدرًا من الحرية في التصالح مع نفسه في طفولته ، وكذلك التسامح مع البيئة المحيطة الغارقة في التقليدية والرجعية ، ارتمى في أحضان التخييل، عالم جديد قديم، جديد في خياله قديم في مرجعيته وأحداثه ، وقد استخدم طه حسين الأسلوب الاعترافي بضمير الغائب حيث أسس فيه حوارًا مفتوحًا بين الظاهر والباطن ، الظاهر من الأحداث التي شاركه فيها آخرون والباطن

من مشاعره وموقفه من تلك الأحداث والتي يبوح بها لأول مرة "وأسلوب الكاتب الاعترافي في أيام طه حسين يتمتع بنوع من الحرية أو قدر يستساغ من التفكك في الحدث العام أو في الشخصيات الرئيسية، يذكر ويتذكر ما يشاء دون مراعاة ترتيب زمني أو معمار هندسي ، كما يفعل الروائي حتى في أكثر أنواع الرواية الحديثة ثورة على الشكل والقواعد، فالأسلوب هنا وظيفي"٦٠ ، يصنع الميزة الأدبية لرواية التخييل الذاتي .

الأيام في حقل الدراسات المقارنة :

حازت الأيام على انتباه النقاد والدارسين منذ صدورها وحتى الآن كما أنها درست دراسات مقارنة مع عدة روايات تنتمي لآداب قومية غير الأدب العربي، نظرًا لريادة الأيام وتفردها وتميزها ، ويأتي تاليًا بيان موجز للدراسات المقارنة للأيام، التي وقعت في أيدي الباحثة.

الأيام وصرخة النورس :

هناك تشابهًا بين رواية صرخة النورس لإمانويل لابوريه ، ورواية السيرة الذاتية الأيام لطه حسين ، حيث إن طه حسين ولا بوريه ظل يجمعهما المرض فيتفقان على الإعاقة التي طالت كلا منهما وتغلبهما على العائق الجسدي ، وخروجهما إلى الواقع بفكر وبصيرة مستنيرة على الرغم من أن حياة لابوريه تختلف بعض الشيء في (تفهم المجتمع لطبيعة المرض) ٦١ بخلاف تجربة طه حسين.

الأيام وغرفة المشفى رقم تسعة :

تلتقي أيضًا رواية "الأيام "مع "غرفة المشفى رقم تسعة "وفي الرواية الخاصة ببيامي صفا تتطابق حالة الفتى في رواية طه حسين مع الفتى المريض بمرض العظام أيضا ويصور كلا الكاتبين أن الإعاقة يمكن أن تكون مصدرًا للإبداع لديهما وتتطابق شخصية كلا الكاتبين في روايتيهما مع شخصية أبطال الرواية عن طريق الإحالات المرجعية والتأريخ للوقائع عن طريق الميثاق المرجعي وهو "مادعم خط ميثاق السيرة الذاتية في الروايتين. " ٦٢

الأيام وصورة الفنان شابًا :

نشر جيمس جويس سيرته الذاتية صورة فنان شاب في 1916، ومن الواضح أن تيار الوعي وإشكالية الهوية٦٣ كانا من أهم سمات تلك الرواية وبعد ثمانية أعوام فقط وفي 1924،أصدر طه

حسين سيرته الذاتية الأيام ، وضمن العديد من جوانب التشابه بين الروايتين حيث يبدو واضحًا استخدام تيار الوعي إلى جانب موضوع الهوية.

الأيام ومن باريس إلى باريس [٦٤]:

تقارن الدراسة بين الأيام ورواية من كتب الرحلات من الأدب الفارسي ، وتقرأ السيرة الذاتية بوصفها رحلة حياة قراءة تحليلية وتوضح أوجه الشبه والخلاف بين الكاتبين المصري طه حسين والإيراني محمد إبراهيم بستاني باريزي، في سرد قصة حياتيهما ، وتوصلت إلى أن الكاتبين المصرى والإيرانى زيّنا خطاباتهما بمصفوفات أدبية مُستخدِمَين أيضا تقنية السرد القصصي.

الأيام وطفولة ساروت :

حاولت هذه الدراسة العودة إلى منبع خصائص الروح الإنسانية لمرحلة الطفولة عبر فن السيرة الذاتية ، فعبر كاتبين٦٥ ، ولد أحدهما في أواخر القرن التاسع عشر ، وولدت الثانية في أوائل القرن العشرين ، وعاشا طفولتيهما في زمن متقارب ، لا يكاد يفصل بينهما أكثر من عشر سنوات، وإن كانا قد عاشاها في قارتين مختلفتين، وعبرا عنها بلغتين مختلفتين هما العربية والفرنسية، وظهر أحد العملين في الربع الثاني من القرن العشرين ، وظهر الآخر في الربع الأخير من القرن العشرين، دون أن يقرأ كل منهما الآخر ، وهنا وجدنا لكتاب الأيام خصوصية تفتح الباب أبدًا على قراءته مرارًا وتكرارًا ، قراءات نقدية ومقارنة.

ملخص الأيام :

الجزء الأول – طه حسين مأساة الطفولة وسوسيولوجيا المجتمع الريفي :

تحدث طه حسين في الجزء الأول من روايته الأيام عن معاناته وشعوره بالضعف والعجز الناتج عن الأسلوب الخاطئ في التعامل مع مرضه الذي أدى لفقدانه لبصره، ثم تجربة فقدان البصر في القرية الصغيرة، " ثم يذكر أنه كان يحب الخروج من الدار إذا غَرَبَت الشمسُ وتعشَّى الناسُ، فيعتمدُ على قصب هذا السِّياج مفكِّرًا مُغرقًا في التفكير، حتى يَرُدَّه إلى ما حوله صوت الشاعر قد جلس على مسافةٍ من شماله، والتفَّ حوله الناس وأخذ يُنشدهم في نَغْمةٍ عذْبةٍ غريبةٍ أخبارَ أبي زيد وخليفةَ دياب" ٦٦

ومن هذا يتضح مدى انجذاب الأديب طه حسين منذ طفولته إلى الأدب والشعر .

واللافت هو كيف يفكر طفل مثل صاحبنا الصبي، وإلى أي شيء يمتد به خياله حتى لا يرده إلى الواقع إلا الشعر الذي ينشده الشاعر حتى " أنه لا يخرج ليلةً إلى موقفه من السياج إلَّا وفي نفسه حسرةٌ لاذعةٌ؛ لأنه كان يُقدِّر أن سيقطع عليه استماعه لنشيد الشاعر حين تدعوه أخته إلى الدخول فيأبَى، فتخرج فَتشُدُّه من ثوبه فيمتنع عليها، فتحمِله بين ذِراعيها كأنه الثُمامة، وتَعدو به إلى حيث تُنيمه على الأرض وتضع رأسه على فَخِذِ أمِّه، ثم تَعمِد هذه إلى عينيه المظلمتين فتفتحهما واحدةً بعد الأخرى، وتقطُر فيهما سائلًا يُؤذيه ولا يُجدِي عليه خيرًا" ٦٧ .

نقل طه حسين في هذا الجزء من الأيام حيث وصف وصوَّر ضعفه وسلوك المجتمع المتمثل في أفراد أسرته فمن خلال الموقف السابق نرى المفارقة بين الفرد الغافل الذي حول الحالة المرضية إلى وضع صعب، والفرد الواعي الذي تحمل عبء الجهل السائد في مجتمعه ، وعدم الوعي من قبل الأم، فتتبلور مسافة توتر هنا بين طرفين أحدهما يعي لكنه يتظاهر بعدم الوعي وآخر لا يعي لكنه يتظاهر بالوعي – وهذا التظاهر من ضعف الحيلة فالأم تقدم لطفلها كل ما تعرفه، وما رأته من حولها ، ولم تتردد في فعله لأنها أيقنت أنها تبذل ما وسعها الجهد في سبيل علاج ولدها، ولكنه النصيب أو القدر أو المكتوب.

الجزء الثاني – أيديولوجية الصراع والتمرد الرافض :

لقد تحول نمط الكتابة لدى الكاتب في الجزء الثاني من كتابه ، حيث رأينا الكثير من وصف الغير الذي كان له الأثر الأكبر والأهم في تحول مسار حياته ونضوج فكره وتوجهه الفكري؛ فنرى المشكلات التي قابلته منذ الصغر خاصة في تلقيه العلم في الأزهر الشريف فقد شكَّلت جزءا مهما في الفكر الاستشرافي عنده فيما بعد ، ومن أهم المواقف الحاسمة التي أثرت في طه حسين وفي طوره الانتقالي بالأزهر الشريف قراءته وصاحبيه لكتاب الكامل للمبرد وموقفه من جملة بحق الفقهاء للحجاج "وفي ذات يوم كان صاحبنا يعدُّ مع صديقيه درس «الكامل»، فعرضت لهم هذه الجملة من كلام المبرد: «ومما كفَّرت الفقهاء به الحجاجَ قوله والناس يطوفون بقبر النبيّ ومنبره: إنما يطوفون برمةٍ وأعواد.»" ٦٨ .

فلم ير في تلك الجملة ما يكفر عليه الحجاج ،ولقد تناقل الطلاب هذا القول لطه حسين فسمع به الشيخ عبد الحكم عطا وغيره من شيوخ الأزهر ثم في نهاية المطاف يجتمع طه حسين وصديقاه لدى شيوخ الأزهر الكبار ويدور حوار ومواجهة بينه وبين طالب متفوق كان اتهم طه حسين وصديقيه

بالكفر لمقالتهم في قول الحجاج وسبابهم الشيوخ ، ولم ينف طه حسين ما قاله الفتى حتى يعاقب هو وصديقيه ، حتى شطب أسمائهم من الأزهر ،ومن هنا بدأت ثورية الرفض لدى طه حسين تجاه الأزهر وشيوخه لعدم تقبل رأيه هنا مثل طه حسين ثورته تجاه الاضطهاد ومناداة لحرية الرأي حتى وإن كانت مخالفة للرأي الآخر ومن هنا بدأ يدافع عن نفسه ولرفع العقوبة عليه اتجه إلى الجريدة ليدافع عن نفسه ودفع إلى صاحب الجريدة مقالة يهاجم فيها الأزهر وسياسته ومنهجه في التعليم، وينادي بحرية الرأي وعندما قدمه لصاحب الجريدة، ورأى مقالته هناك حسن بك صبري، وهو مفتش العلوم الحديثة بالأزهر عقب عليه قائلا :"لو لم تعاقب على رأيك لعوقبت على مقالتك هذه" ثم يتضح لنا من خلال سؤال صاحب الجريدة له أكانت مقالته كرها وعدوانا على الأزهر أم من أجل رفع العقوبة عليه، وتبين أنه كان يريد العودة إلى دروس الأزهر ورفع العقوبة لا كرها ولا عدوانا عليه ،يتضح هنا إلى أي مدى كان طه حسين متمردًا في طرحه القضايا، وتعاطيه مع الثوابت، كما كان لهذا الموقف أثر في بيان رفضه للديكتاتورية، ومن ثم دعوته لحرية الإبداع ، ومن هذا تحول طه حسين من الحياة العلمية في الجامع الأزهر إلى حياة الأدباء كما ينوه "في مكتب مدير الجريدة ظفر الفتى بشيء طالما تمناه، وهو أن يتصل ببيئة الطرابيش بعد أن سئم بيئة العمائم" ٦٩،وعلى هذا كان لهذا اللقاء أثر في انفتاحه على فئة الأدباء والكتاب والطبقة العليا من المجتمع التي كانت تبعد عنه أميالًا .

الجزء الثالث – الصراع نحو التجديد والانفتاح:

لقد رفض طه حسين التعنت الذي كان يراه من شيوخ الأزهر فدعاه هذا إلى البحث عن حريته ، حرية الفكر والرأي فبدأ من هنا في محاربته للأزهر وشيوخه حيث قام بنشره عدة مقالات ظهر فيها مدى رفضه لسياسة الأزهر وشيوخه بسبب ما عاناه أثناء دراسته من شيوخ الأزهر وبعض رموزه ، ويتحول أسلوب الكتابة في الجزء الثالث من الذاتية الطاغية إلى الطابع الروائي المتسم بالحوارية فنراه يشرك الآخر ويمنحه حقه في تسليط الضوء عليه فيفتح النص على واقع آخر خارجي يخالف الواقع المأساوي، واقع انتصاري تنتصر فيه الذات على الآخر فيخلق الكاتب أيديولوجية معاكسة ينقل من خلالها عالمًا خارجيًا ينفذ إليه الفتى فينتصر فيه على الداخل المرير إلى الخارج المضيء والحلم السعيد "وكذلك تحقق هذا الحلم السعيد الذي داعب نفس الفتى وداعبته نفسه أعوامًا، وأصبح صاحبنا عضوًا في بعثة الجامعة" ٧٠ .

فهنا تظهر أيديولوجية المثابرة وقوة الإرادة وعدم الاستسلام والتغلب على الواقع والمعوقات، لقد حاول الكاتب التغلب على القوى المقابلة، من خلال إثبات الذات ومن هذا المنطلق صوَّر طه حسين

آلام سجن الجسد الذي حُبس فيه ويجاهد لفعل ما يصل به إلي المخرج، إلى الحرية، لقد كان يرى نفسه عاجزًا كما يراه الآخرون، ما دام لم يحقق ما يثبت قدرته وتفوقه.

كتاب الأيام صورة واعية للصراع بين الإنسان وبيئته ، "وكاتبه يعمد عمدًا إلى تصوير ذلك الصراع ، ولا يدعه ليستنتج من طبيعة السيرة نفسها؛ فهو يصف مراحله ويتدرج بها، معتمدًا على أن حياته خير مثل للانتصار على البيئة، والوصول في النهاية "٧١ .

يحمل الأيام قدرًا كبيرًا من التصالح مع النفس والتسامح مع الماضي، وتغلب عليه العاطفة في الكثير والكثير من المواقف،خاصة فترة الطفولة ، مما يدلل على حجم المعاناة التي قاساها صاحبها، "وعلى الرغم من بعض المواقف العاطفية في الكتاب ، فإن طبيعة الانسياب فيه، وسرده في ضمير الغائب، قد حققا شيئًا من التجرد في الحكم . وباستعمال ضمير الغائب، برئ من مظنة العجب والدعوى والتمجد بالنفس وغير ذلك من الصفات التي يوحي بها ضمير المتكلم ، ومما قلل من صراحته إخفاؤه الأسماء–أسماء الأماكن والناس– فأضعف القيمة المكانية ، وشيئًا من القيمة التاريخية في قصة حياته " ٧٢ .

ديفيد كوبر فيلد– تشارلز ديكنز :

رواية " ديفيد كوبر فيلد " والتى يكاد يُجمع النقاد على أنها سيرة ذاتية لتشارلز ديكنز: واسمه بالكامل " تشارلز جون هوفام ديكنز ".وهو يعد من أكبر وأشهر كتاب العهد الفيكتوري ، ولد في جنوب إنجلترا في فبراير عام ١٨١٢م ، وهو ينتمي لأسرة من الطبقة الكادحة ، وقد انعكست سمات العصر في إنجلترا– التي كانت تمر بفترات عصيبة في العصر الفيكتوري– على أدب تشارلز ديكنز حيث اهتم تشارلز ديكنز في أدبه بقضايا الطفل وكيف لا وهو الذي عانى في طفولته من الفقر وسجن والده وخروجه للعمل في سن مبكر، وعمل تشارلز ديكنز بالمحاماة وكانت هي الباب الأول له في الخروج إلى عالم الكتابة .

وكان والده موظفًا بسيطًا فى الميناء وله ثمانية أولاد كان ترتيب تشارلز الثاني بينهم .. وكان ضعيف البنية نحيف الجسد إلى الحد الذى جعله يبتعد عن اللعب العنيف مع أقرانه ويميل إلى القراءة والاطلاع .. فكان يقرأ كل ما يصادفه من كتب فى هذه السن الصغيرة حتى أدمن القراءة إدمانا ظل يرافقه حتى الممات .. لدرجة أنه لم يترك شيئا لم يقرأه أو يطلع عليه حتى كتب ألف ليلة وليلة وقصص الجان .

كانت طفولة ديكنز تعيسة إلى حد كبير بسبب قلة دخل والده وتراكم الديون عليه ودخوله السجن مما اضطره إلى ترك الدراسة والعمل فى أحد مصانع الورنيش وبعدها عمل فى مكتب للمحاماة .. ودام ذلك عدة سنوات حتى آلت إلى والده ثروة صغيرة مكنته من تسديد ديونه وإلحاق ابنه – تشارلز– بإحدى المدارس ، وفى أثناء دراسته الثانوية فى تلك المدرسة الراقية راسل بعض الصحف وكتب فيها ، ومهد ذلك الطريق أمامه ليعمل محررا فى إحداها وهو فى الثالثة والعشرين.

قدم تشارلز ديكنز عدة أعمال أدبية حاول في جلها أن يناقش قضايا المجتمع لإيمانه بأن إصلاح المجتمع ينبع من إصلاح الفرد، وعلى هذا قدم وناقش مشكلات مجتمعه، وطرحها في أعماله، ولكن نراه في رواية كوبرفيلد ركز على نقل سمات المجتمع من خلال تجربته الذاتية في صورة مقنعة ، ومن الذات إلى رؤى العالم يصف ديكنز في هذه الرواية حياة طفل، ومأساته ومعاناته مع قسوة الكبار ،وصوَّر حياة الفقراء وظلم رجال الدين والقانون، كما صوَّر فيها حياة الطفل داخل البيت الفيكتوري الفقير، وعلى هذا فهي رواية سيرذاتية تتمتع بالحس الروائي لسيرة الكاتب ذاته، ويلاحظ بوضوح ذاتية كتاب ديفيد كوبرفيلد وإلى أي مدى كان كوبرفيلد هو ديكنز.

عبرتشارلز ديكنز في رواية السير ذاتية كوبرفيلد التي يعتبرها "الكثير من النقاد ..بمثابة سيرة ذاتية مقنعة لتشارلز ديكنز نفسه "٧٣ ،عبر فيها عن ذاته ومعاناته داخل المجتمع فتناول فيها عدة قضايا مهمة تخص الطفل داخل أسرته أو المجتمع ومدى تأثير ذلك عليه ، ولقد تم دراسة روايته السير ذاتية على يد الناقد إدموند ويلسون حيث درسها من وجهة علم النفس والاجتماع ، وقد تأثر تشارلز ديكنز بإليوت **Eliot** في دعوته الظاهرة للإصلاح المجتمعي **Social reform** وظهر هذا في روايته كوبرفيلد التي دعا فيها إلى تطهير المجتمع من بعض النماذج الدينية والسياسية التي أفسدت المجتمع ، والتزم في دعواه في سيرته قيماً تربوية جعلت من روايته عملًا متفردًا في الأدب الإنجليزي والعالمي .

ملخص ديفيد كوبر فيلد[٧٤] :

تبدأ القصة بميلاد طفل ،أمه الأرملة تتلقى زيارة مفاجئة من عمة زوجها واسمها (بيتسي تروتوود) ، وتصر العمة على أن الأرملة ستلد فتاة ، وليس هناك بد من أن تسمى بيتسي تروتوود كوبرفيلد ، تيمنًا بها ، ولكن خاب أملها وكان المولود ذكراً واسمه ديفيد كوبرفيلد وهو بطل القصة .

عاش بطل القصة سنواته الأولى في سعادة مع أمه وخادمتها بيجوتي ، ولكن ذلك كله انتهى عندما وقعت كلارا أمه في حب إدوارد مردستون ، وبدأت معاناة ديفيد ، وسارت حياته نحو الأسوأ ثم الأسوأ.

في بيت بيجوتي قابل ديفيد إيميلي ، الحب الأول له ، حب الطفولة ، وقابل كذلك ابن عمها هام ، وكانت بيجوتي تعتني بهما ، وعندما يعود من رحلته يجد أمه قد تزوجت من مردستون الرجل الفظ القاسي الذي يضرب ديفيد ويجبر أمه كلارا على الخضوع له ولأخته جين .

بعد محاولات ديفيد لمقاومة المعاملة القاسية من مردستون وأخته ، قاموا بإرساله إلى (سايلم هاوس) وهي مدرسة داخلية مزرية يديرها السيد كريكل ، وهو مدير شديد القسوة ولا يصلح لإدارة مدرسة ، كما قابل ديفيد من زملائه كل من تومي ترادلز ، وج ستيرفورث ؛ الأول طيب ومحب وسيصبح صديق العمر لديفيد ، والثاني يعد بطلًا لديفيد من وجهة نظره وأثر في نشأته والذي وعد أن يعتني به في المدرسة .

بعد انتهاء فصل دراسي في (سايلم هاوس) ، يتلقى ديفيد خبر موت أمه ووليدها ، ويعود للمنزل ويبدو جليًا أن آل مردستون لا حاجة لهم بديفيد ، فقد طردوا بيجوتي التي تزوجت من السيد باركيس سائق العربة ، وقد انتقلت إلى يارماوث .

حينئذ أرسل ديفيد للعمل في مصنع في لندن وهو في العاشرة من عمره ، ولكنه يكره العمل كما يكره من حوله من الأطفال والرجال ، ولكن يناله بعض العناية والتشجيع من عائلة ميكاوبر ، وهم كذلك من وجد عندهم المأوى ، ولكن لا يلبث آل ميكاوبر أن يغادروا لندن ، ويهرب ديفيد من المصنع وينتقل عبر البلاد إلى دوفر٧٥. مشيًا على الأقدام ، بحثًا عن المأوى عند عمته الكبرى السيدة (بيتسي تروتوود) والتي ترعاه ويعيش معها ومع صديقها السيد (ديك) في سعادة.

ترسله عمته إلى كانتربري إلى مدرسة الدكتور سترونج وهو معلم طيب قدير، وفي أثناء إقامته في كانتربري ينزل عند المحامي الخاص بعمته وهو السيد ويكفيلد وابنته آجنس ، والتي تصبح أعز أصدقائه ، كما يلتقي بالموظف الخاص بالسيد ويكفيلد وهو يورياه هيب والذي يتخفى وراء قناع من التواضع المزيف .

عندما يكمل ديفيد دراسته يلتقي مرة أخرى بصديقه القديم (ج.ستيرفورث)، ويسافران معًا إلى ياراموث حيثما يقدمه ديفيد إلى أصدقائه آل بيجوتي ،وحينئذ كان (هام) قد خطب (إيميلي) لكن (ستيرفورث) ينتبه لإيميلي الجميلة ، ويتودد لآل (بيجوتي)، وللسكان من حولهم ، ويصبح معروفًا بينهم ،ولكنه في حقيقة الأمر يزدريهم.

عندما يعود ديفيد إلى لندن يسعى لأن يصبح كاتب قانون، ويلتقي كذلك بصديقه القديم ترادلز ، الذي يدرس ليصبح محاميًا ، ويقبل ديفيد العمل في شركة القانون (سبنلو وجوركنز) ، وسرعان ما يقع في حب ابنة (سبنلو) (دورا) وهي محببة جميلة ولكنها ضعيفة ، ويحبها سرًا ولكن عندما يعلن عن هذا الحب يرفض الأب (سبنلو) طلبه ، ولكنه لا يلبث أن يموت ، وتتحول رعاية دورا إلى عماتها ، وفي هذه الأثناء يعلم ديفيد بمرض السيد(باركيس) زوج (بيجوتي) الذي كان يحتضر ، ولكن المأساة الكبرى عندما يعلم أن إيميلي هربت مع ستيرفورث ، وقد كرس (دانييل بيجوتي) والدها ، الباقي من حياته للبحث عنها ، ويحاول ديفيد مقابلة السيدة ستيرفورث والتي تصر على أنها لن تسمح لابنها بالزواج من هذه الفتاة ، وفي رأيها فإن الفتاة هي الملومة الوحيدة فيما حدث لأنها تسعى لطبقة أعلى من طبقتها الاجتماعية .

لم يعد ديفيد للعمل في (سبنلو وجركنز) ، لكنه أصبح السكرتير الخاص بالدكتور سترونج ، بينما أصبح ميكاوبر شريكًا للسيد ويكفيلد عبر ابتزازه وغشه وإرغامه على جعله شريكًا في شركة المحاماة .

تزوج ديفيد من دورا وسرعان ما تبين أنها لا تصلح لمسئولية الأسرة والزواج، وقد صار ديفيد صحفيًا، وصار يكتب عن البرلمان ، ثم صار روائيًا معروفًا .

في هذه الأثناء ، أبعد ستيرفورث إيميلي وأرادها أن تعمل خادمة له ، لكنها هربت إلى لندن ، وطلبت المساعدة من السيدة (مارثا أرديل) ، ثم اجتمعت بوالدها الذي قرر أخذها إلى أستراليا حيث لا أحد يعرف بفعلها المشين .

ساعد ميكاوبر كل من (ديفيد ، بيتسي ، السيد ديك ، ترادلز) على التصدي ليورياه هيب وكشف مؤامرته واحتياله ضد السيد ويكفيلد ، لأنه كان يحاول بهذا الغدر أن يتزوج آجنس لكنه فشل ، لأن السيد ميكاوبر فضح أفعاله المشينة ، وفي المقابل قررت السيدة بيتسي مكافأة عائلة ميكاوبر

بتمويل رحلتهم إلى أستراليا ، لأنهم أرادوا مرافقة دانييل بيجوتي والد إيميلي وعائلته إلى هناك حيث بداية جديدة وفرص جديدة، أما السيدة بيتسي فقد عادت إلى منزلها الذي ظنت أنه فقد ضمن مكائد يورياه هيب والذي سجن بتهمة الاحتيال والسرقة .

بعد أن فقدت جنينها ماتت دورا زوجة ديفيد ، كما قتل هام وقتل ستيرفورث في عاصفة كان يحاول فيها هام إنقاذ ستيرفورث ، أما بيجوتي فتقوم على أمور منزل السيدة بيتسي، وديفيد يسافر في رحلة مدتها ثلاث سنوات ليهدئ من أثر الحزن بعد موت دورا.

وعندما يعود يذهب إلى آجنس حتى يتزوجها لأنه أدرك أنه يحبها وهي تحبه كذلك منذ البداية ، بعدما حقق ديفيد نجاحًا وخبرة بأمور الحياة. وعاشا بسعادة أبدية.

معاناة الطفولة في ديفيد كوبر فيلد :

شأن جميع أعمال ديكنز فإن مرحلة الطفولة تمثل موضوعًا مهمًا في رواية ديفيد كوبر فيلد ، نتيجة لتأثر ديكنز بمعاناة الأطفال في العصر الفيكتوري في إنجلترا نظرًا للعديد من المشكلات في المجتمع٧٦ والتي عايشها هو نفسه وبالتالي انعكست في رواياته ، وتظهر الآلام التي قاساها الأطفال في أدب ديكنز عن طريق تعرضهم للإهمال والإساءة النفسية والجسدية.

وهذا بالضبط ما عاناه ديفيد كوبر فيلد في طفولته من زوج أمه السيد مردستون ومن ناظر المدرسة السيد كريكل ، ومن موت أبيه قبل ولادته وموت أمه بعد ذلك، وغير ذلك الكثير، لكنه تخطى كل تلك العقبات والعوائق وصار كاتبًا شهيرًا ، كما فعل تشارلز ديكنز نفسه ، وفي هذا الشأن يتماهى جانب السيرة الذاتية مع جانب التخييل السردي ، ويمكن القول بأن معاناة الطفولة هي التي صقلت شخصية الأديب عند ديكنز ، وجعلته ينقل – وبإخلاص تام – معاناة العديد من الأطفال من أترابه وأقرانه ، في المجتمع الإنجليزي في العصر الفيكتوري ، وهو ما يجعلنا نؤكد على توفر عناصر التخييل الذاتي في رواية ديفيد كوبر فيلد . وأن تلك التجارب القاسية التي عاناها كوبرفيلد صورة منقولة عن تجارب ديكنز الحياتية على الرغم من أن رواية ديفيد كوبر فيلد ليست رواية سيرة ذاتية بالمعنى التقليدي المثالي، وليست مكافئة وموازية لأيام طه حسين على المستوى الأجناسي ، بل لكل كتاب منهما خصوصيته ، ويجمعهما الاختلاف حول النوع ، الذي يوجه أوجه وسبل قراءته ، ويركز البحث على عناصر التخييل الذاتي بين الكتابين.

عصفت عاصفة بديفيد كوبر فيلد في أولى سنوات حياته عندما تزوجت أمه بالسيد مردستون القاسي الفظ الذي عزم السيطرة التامة على الأم والتخلص من الولد، وقد صور ديكنز هذه المعاناة بدقة متناهية غاية في الإتقان ، حتى افتقد كوبرفيلد كل شيء من حياته السعيدة السابقة مع أمه، لم يهمل ديكنز أدق التفاصيل حتى مشيته في الطريق مع أمه افتقدها يقول٧٧ :" عندما نمشي عائدين للبيت أسمع بعض الهمس من الجيران ، وأرى أمي وخطواتها ثقيلة ، وجمالها يتلاشى، أتساءل إن كان الجيران يلاحظون ويتذكرون كما أذكر أنا كيف كنت أمشي أنا وأمي يدًا بيد ، وأسأل نفسي في حماقة عن الفارق بين ذاك اليوم وهذا اليوم الحزين الكئيب الذي يمشي فيه ثلاثتهم معًا ويتركوني خلفهم وحيدًا " ربما يحيل ذلك إلى افتقاد ديكنز إلى حياته الأولى بين عائلته ، وربما حدث ذلك مع أمه بعد إيداع أبيه في السجن .

وتتكاثر التجارب المؤلمة على ديفيد ، نفسيًا وجسديًا فقد تعرض للإساءة الجسدية من زوج أمه يقول٧٨ .عما يحل به إذا نسي كلمة من دروسه:"ينهض السيد مردستون ويصفعني بالكتاب على أذني ، ثم يمسكني من كتفي ويلقي بي خارج الغرفة" يفعل به ذلك بدعوى الحزم والصرامة .

حتى وصل به الأمرأن يضربه ضربًا مبرحًا يقول:" ضربني ، كما لو كان يحاول قتلي ضربني حتى الموت ، وصعدت السلم مسرعًا وسمعت بكاء أمي وبيجوتي ، وأغلق الباب علي ، واستلقيت على الأرض محمومًا ، ممزقًا ، حاولت النهوض والنظر لوجهي في المرآة ، فارتعبت لقد كان مخيفًا متورمًا ، ملتهبًا ، قبيحًا، وشعرت بذنب عظيم وشعرت أني مجرم فظيع "٧٩ .

وهناك تجربة المدرسة ، فقد أرسل كوبرفيلد إلى مدرسة (سايلم هاوس) الداخلية والتي لاقى فيها الإيذاء النفسي والبدني ، بدلاً من التعليم، من المدير السيد كريكل وهو صديق لزوج الأم السيد مردستون .

.يقول كوبرفيلد :"في الصباح جاءت مس مردستون وأخبرتني بذهابي للمدرسة اليوم ، ووجدت أمي شاحبة حزينة تحتقن عيناها بالدماء وقالت: ديفي هل يؤسفني أن تحمل بداخلك الأذى لأي شخص أحبه ، حاول أن تتحسن ، صل لتتحسن، أسامحك ، ولكني حزينة لأنك تحمل هذا الشعور في قلبك، لقد أقنعوها أني ولد سيء"٨٠ .

وديكنز ٨١ مر بالتجربة نفسها عندما كان والده في السجن ألحقته أمه بمدرسة مشابهة اسمها (ويلنجتون هاوس) ، والتي أدارها مدير قاس وشرير مثل السيد كريكل.

لكن الأمر أصبح أفضل حالًا بعدما انتقل كوبرفيلد للعيش مع عمته بيتسي، وألحقته بمدرسة الدكتور سترونج والتي تعلم فيها كل شيء ، ولم يتعرض فيها للإساءة اللفظية ولا الجسدية مثلما حدث في المدرسة الأخرى ، كما زرع الدكتور سترونج في تلاميذه العزة وحب العلم ، والثقة في أنفسهم ومدرستهم ، حتى أصبح ديفيد يعمل بالمحاماة ثم صار كاتبًا وصحفيًا ، وكذلك ديكنز بعد أن ورث والده بعض الأموال ، وأصبح أفضل حالًا من قبل وخرج من السجن وألحق ابنه بمدرسة جديدة ، كما تبع تشارلزخطى والده في العمل في الصحافة ،وعمل في المحاماة كذلك وأصبح كاتبًا أيضًا.

ثم هناك تجربته القاسية في مصنع الأحذية، الذي اضطر للعمل فيه صغيرًا، وهي نفسها تجربة ديكنز حينما اضطر للعمل وهو في الثانية عشرة من عمره ، في مصنع للأحذية ، لمساعدة أهله في سداد الديون ،وهي مشكلة شاعت في المجتمع الإنجليزي في العصر الفيكتوري ، وهي عمالة الأطفال لساعات طويلة بأجور قليلة ومعاملة قاسية٨٢ .

الهروب من قسوة الواقع إلى لين الخيال عند تشارلز ديكنز:

وجد الطفلان ، طه وتشارلز أنفسهما ضحية لتجارب الحياة المؤلمة والواقع القاسي ، فوجدا الملاذ في القصص والحكايات لما يتمتع به الخيال من قوة واتساع ولامحدودية مما يبعث في النفس قوى لا قبل له بها في الواقع ، يصبح خارقًا للعادة وللطبيعة يطير مع علاء الدين على بساطه ، ويترك خلفه كل ما يؤذي النفس ويحبسها في سجن الكآبة والحزن.

والصدفة تشير إلى أن كليهما قرأ ألف ليلة وليلة وحكاياتها ، يقول كوبر فيلد٨٣: " ترك أبي مجموعة صغيرة من الكتب في غرفة صغيرة في السقيفة ، والتي يمكنني الوصول إليها دون عناء من غرفتي ، والتي لم يعبأ بها أحد من سكان البيت، ومنها بيرغرين بيكل ، وهمفري كلينكر، وتوم جونز ،وقس ويكفيلد، ودون كيشوت، ومغامرات جيل بلاس،وكذلك روبنسون كروزو ،قد صاحبتني هذه الكتب وأبقت خيالي متقدًا ، وجعلتني أحلق بعيدًا منفصلًا عن الزمان والمكان ،كل هذه الكتب ومعها قصص ألف ليلة وليلة ، وحكايات الجني" .

يظهر كذلك تأثر ديكنز بحكايات ألف ليلة وليلة فقد وظف إحدى الحكايات٨٤ في تجربة كوبر فيلد في المدرسة الداخلية(سايلم هاوس) ، كان صديقه ستير فورث –وهو أكبر منه– يحميه من مضايقات الآخرين، وفي المقابل كان يطلب من كوبر فيلد أن يحكي له كل الحكايات التي قرأها في كتاب ألف ليلة وليلة ، وقد أعجب بها ستير فورث أشد الإعجاب، واستمر كوبرفيلد في الحكايات ليلًا ونهارًا لينقذ نفسه من التعرض للإيذاء والإذلال، كما فعلت الأميرة شهر زاد التي أنقذت نفسها من القتل عن طريق استمرارها في الحكايات حتى طلوع النهار .

تركت أحداث الطفولة أثرًا واضحًا في شخصية ديكنز وهو ما ظهر عند كتابته لرواية ديفيد كوبر فيلد ،فالآن– زمن كتابة ديفيد كوبر فيلد– وبعد مرور الوقت بعد أن ولت أيام الطفولة المؤلمة يحاول كوبر فيلد أن يتطهر ويبحث عن الخلاص من خلال تلك الحكايات ، وكذلك يفعل ديكنز بتوظيف شخصية تنوب عن ذاته وتثبت أنه تجاوز الصعاب وتغلب على العقبات ، وأنه لم يكن ليتجاوز هذا الماضي إلا بمواجهته، بدلًا من الهرب منه ومحاولة نسيانه ، فقد استرجع كل تفاصيل الطفولة المؤلمة واستعمل الوصف الدقيق لكل مشاعر الحزن والألم والرفض والوحدة التي انتابته في طفولته ، هكذا واجه الماضي وتغلب عليه ، وطرد شياطينه .

معاناة الطفولة في الأيام :

توجه صاحب الأيام في تجربة التخييل الذاتي هذه، إلى إبراز قوة الذات الإنسانية في مواجهة الآفات من شتى السبل، آفات الجسد آفات المجتمع ، أو آفة الجسد التي نتجت عن جهل ورجعية المجتمع ، كذلك تجربة الشخص الفرد في مواجهة النظم المجتمعية والتعليمية ، ومواجهة الأفكار البالية ، والهروب من قسوة وضيق الواقع إلى لين وسعة الخيال .

منذ بداية القصة يطلعنا صاحب الأيام الذي روى الحكاية بلسان (صاحبنا) على العوائق التي واجهته في طفولته ، نتيجة إصابته بالعمى ، والذي نتج عن معالجة عينيه بالطرق الشعبية التقليدية ، فقد لاحظ الفارق بين معاملة أمه وأبيه له ، وإخوته وقد عرف أن إخوته يختبرون ما لا يختبر لأنهم يبصرون ما لا يبصر، وقد نقل هذه التجارب بأدق تفاصيلها وربط بين حاله وحال أبي العلاء" وأعانته هذه الحادثة على أن يفهم طورًا من أطوار أبي العلاء حق الفهم، ذلك أن أبا العلاء كان يتستر في أكله حتى عن خادمه، فقد كان يأكل في هذا النفق ثم يخرج، ويخلو إلى طعامه فيأخذ منه ما يشتهي ، وقد زعموا أن تلاميذه ذكروا مرة بطيخ حلب وجودته، فكلف أبو العلاء وأرسل إلى حلب من اشترى لهم

منه شيئًا، فأكلوا واحتفظ خادمه لسيده بشيء من البطيخ وضعه في النفق، ولكنه لم يضعه في المكان الذي تعود أن يضع فيه طعام الشيخ، وكره الشيخ أن يسأل عن حظه من البطيخ، فلبث البطيخ في مكانه حتى فسد ولم يذقه الشيخ"٨٥ ، وهنا حرم الصبي على نفسه ألوانًا من الطعام التي أتيحت لغيره من المبصرين ، وقد "فهم صاحبنا هذه الأطوار من حياة أبي العلاء حق الفهم لأنه رأى نفسه فيها ؛ فكم كان يتمنى طفلاً لو استطاع أن يخلو إلى طعامه، ولكنه لم يكن يجرؤ أن يعلن إلى أهله هذه الرغبة"٨٦ .

وقد اختبر قلبه شعور الفقد والحزن من أول سنوات طفولته عندما مات أخوه، وكانت تجربة حزينة ثقيلة عليه" من ذلك اليوم عرف الصبي أرق الليل ، فكم أنفق سواد الليل كاملاً يفكر في أخيه أو يقرأ له سورة الإخلاص آلاف المرات ثم يهب ذلك كله لأخيه، أو ينظم شعرًا على نحو هذا الشعر الذي كان يقرؤه في كتب القصص يذكر فيه حزنه وألمه لفقد أخيه، معنيًا بألا يفرغ من قصيدة حتى يصلي في أخرها على النبي واهبًا ثواب هذه الصلاة لأخيه"٨٧.

فكانت تجربة الموت موت الأخت الصغرى وموت الأخ، أولى التجارب التي آلمت قلب الصبي ، فلم يخبرنا حتى هذا الوقت في حياته أن آفته أحزنته وآلمت قلبه، وقد أثرت فيه تلك التجربة أثرًا كبيرًا ، وتعامل معها كما عرف من الكتب التي كان يقرؤها، ومن الثقافة الإسلامية التي نشأ فيها وعليها، بالصلاة والصيام والدعاء وأن يهب ثواب ذلك كله لأخيه وقد التزم بعهد بينه وبين نفسه لم يخبر به أحدًا، إلى أن شاركنا إياه ، وألزم نفسه بهذا العهد إلى أن التحق بالأزهر، وانتقل إلى القاهرة" شهد الله ما كان الصبي حزينًا لفراق أمه، وما كان حزينًا لأنه لا يلعب، إنما كان يذكر هذا الذي ينام هنالك وراء النيل ، كان يذكره، وكان يذكر أنه كثيرًا ما فكر في إنه سيكون معهما في القاهرة تلميذًا في مدرسة الطب، كان يذكر هذا كله فيحزن، ولكنه لم يقل شيئًا حزنًا، وإنما تكلف بالابتسام ، ولو قد أرسل نفسه مع طبيعتها لبكى ولأبكى من حوله أباه وأخويه ٨٨ عندما ترك قريته مغادرًا إلى القاهرة ليتعلم في الأزهر ، غادر تلك الذكرى لكنها لم تغادره وظلت في وجدانه حتى شاركنا إياها.

ولم تكن مأساة الصبي بسبب آفته مع الطعام فقط، فقد واجه الكثير غير ذلك، وخاصة عندما انتقل إلى القاهرة ليدرس في الأزهر وقد ترك خلفه أسرته والرفق الذي أحاطوه به ولم يكن قد اختبر قسوة العالم بعد فيحكي بعض التجارب المؤلمةعن إقامته بغرفة من غرف الأوقاف بإحدى الحارات في القاهرة فيقول عن ذاك الصبي:"كان إذن يقبل على طعامه، حتى إذا فرغ منه عاد إلى سكونه وجموده

في ركنه الذي اضطر إليه، وقد أخذ النهار يتصرم، وأخذت الشمس تنحدر إلى مغربها، وأخذ يتسرب إلى نفسه شعور شاحب، هادىء حزين، ثم يدعو مأذون المغرب إلى الصلاة فيعرف الصبي أن الليل قد أقبل. ويقدر في نفسه أن الظلمة قد أخذت تكتنفه، ويقدر في نفسه أن لو كان معه في الغرفة بعض المبصرين لأضيء المصباح ليطرد هذه الظلمة المتكاثفة، ولكنه وحيد لا حاجة له إلى المصباح فيما يظن المبصرون، وإن كان ليراهم مخطئين في هذا الظن؛ فقد كان في ذلك الوقت يفرق تفرقة غامضة بين الظلمة والنور. وكان يجد في المصباح إذا أضيء جليسًا له ومؤنسًا. وكان يجد في الظلمة وحشة لعلها كانت تأتيه من عقله الناشيء وحسه المضطرب"٨٩

ومازال يلوم نفسه على خوفه كما ظن أن الآخرين سوف يلومونه عليه إذا أفصح بحقيقة شعوره ، وربما كان مخطئًا كل الخطأ في ذلك الظن ، فلو كان صارح أخاه بأنه يحتاج إلى المصباح ليبدد خوفه واضطرابه ، لكان استجاب لطلبه ، لكنه كره الشفقة ، وكره أن يطلب ما يثبت اختلافه عن الآخرين ، وقد آثر أن يقبع في مكانه في ظلمة الليل متآلفًا معها ، على أن يُظن به الخوف أو العجز ." وكانت هذه الحياة شاقة على الصبي وعلى أخيه معًا، فأما الصبي فقد كان يستقل ما كان يقدّم إليه من العلم ويتشوق إلى أن يشهد أكثر مما كان يشهد من الدروس، ويبدأ أكثر مما كان قد بدأ من الفنون. وكانت وحدته في الغرفة بعد درس النحو قد ثقلت عليه حتى لم يكن يستطيع لها احتمالاً، وكان يود لو استطاع الحركة أكثر مما كان يتحرك والكلام أكثر مما كان يتكلم. وأما أخوه فقد ثقل عليه اضطراره إلى أن يقود الصبي إلى الأزهر وإلى البيت مصبحًا وومسيًا. وثقل عليه أيضًا أن يترك الصبي وحده أكثر الوقت، ولم يكن يستطيع أن يفعل غير هذا؛ فلم يكن من الممكن ولا من الملائم لحياته ودرسه أن يهجر أصدقاءه ويتخلف عن دروسه ويقيم في تلك الغرفة ملازمًا للصبي مؤنسًا له"٩٠ .

وكان ينتهي إلى أن يألف صوت الظلمة ويطمئن إليه. ولكن في الغرفة أصواتًا أخرى كانت تفزعه وتروعه أصوات مختلفة؛ فقد كانت هذه الغرفة من غرفات الأوقاف. ومعنى ذلك أنها كانت قديمة، قد طال عليها العهد، وبعد بها الأمد، وكثرت بجدرانها الشقوق، وعمرت هذه الشقوق طوائف من الحشرات وغيرها من صغار الحيوان، وكانت هذه الحشرات وهذه الصغار من الحيوان كأنما وكلت الصبي إذا أقبل الليل عليه وهو قابع وحده في هذا الركن من أركان الغرفة؛ فهي تبعث من الأصوات الضئيلة. وتأتي من الحركات الخفيفة السريعة حينًا والبطيئة حينًا آخر ما يملأ قلب الصبي هلعًا ورعبًا.

فإذا أقبل أخوه وحده أو مع اصحابه فأضيء المصباح انقطعت هذه الأصوات والحركات شيئًا. وأيسر ما كان يخاف إن تحدث ببعض ذلك أن يسفه رأيه وأن تظن بعقله وبشجاعته الظنون. فكان يؤثر العافية ويكظم خوفه من الحشرات وصغار الحيوان"، يخبرنا صاحبنا بأكثر التجارب المؤلمة التي مر بها ، عن طريق وصف الشعور الذي انتابه في تلك المواقف ، وتكمن عبقرية القصة في تفردها وخصوصيتها، لن نجد من يخبرنا بأثر تلك الحوادث في نفس الصبي ، ولن نجرب ما مر به لأننا لم نمر بمثل ظروفه، ولم يفعل أحد إلا من ابتلي بمثل آفته .

حتى أن ذاكرته الانتقائية التي أخبرنا عنها، ركزت على حوادث صغيرة مفصلة حزينة مؤلمة. يعجب هو نفسه لها"والغريب أنه كان يجد للظلمة صوتًا يبلغ أُذنيه، صوتًا متصلاً يشبه طنين البعوض لولا أنه غليظ ممتليء. وكان هذا الصوت يبلغ أُذنيه فيؤذيهما، ويبلغ قلبه فيملؤه رعبًا، وإذا هو مضطر إلى أن يغير جلسته فيجلس القرفصاء ويعتمد بمرفقيه على ركبتيه ويخفي رأسه بين يديه، ويسلم نفسه لهذا الصوت الذي يأخذه من كل مكان ، ومع أن سكون العصر كان كثيرًا ما يضطره إلى النوم، فقد كان سكون العشية يضطره إلى اليقظة التي لا تشبهها يقظة"٩١ .

وليس في تمسكه بكل تلك الذكريات واستحضارها إلا مواجهة لها ومحاولة لهزيمتها.

كل ما سبق كان من تجاربه الذاتية بين مواجهة مخاوفه ومروره بكل الصعاب التي ترتبت على فقدانه لبصره، لكنها كلها بينه وبين ذاته، لم يتعرض لمواجهة الناس فيما يخص آفته إلا في الأزهر، إذ" أقبل اليوم المشهود، فأنبيء الصبي بعد درس الفقه أنه سيذهب إلى الامتحان في حفظ القرآن توطئة لانتسابه إلى الأزهر، ولم يكن الصبي قد أنبئ بذلك من قبل، فلم يتهيأ لهذا الامتحان ، ولو أنبئ به لقرأ القرآن على نفسه مرة أو مرتين قبل ذلك اليوم، ولكنه لم يفكر في تلاوة القرآن منذ وصل إلى القاهرة ، فلما أنبئ بأنه سيمتحن بعد ساعة خفق قلبه وجلاً، وسعى إلى مكان الامتحان في زاوية العميان خائفًا أشد الخوف مضطرب النفس أشد الاضطراب، ولكنه لم يكد يدنو من الممتحنين حتى ذهب عنه الوجل فجأة، وامتلأ قلبه حسرةً وألمًا، وثارت في نفسه خواطر لاذعة لم ينسها قط؛ فقد انتظر أن يفرغ الممتحنان من الطالب الذي كان أمامهما، وإذا هو يسمع أحد الممتحنين يدعوه بهذه الجملة التي وقعت من أذنه ومن قلبه أسوأ وقع: " أقبل يا أعمى""٩٢ .

.وقد بقيت الجملة في قلبه طوال حياته لم يمحها من سمعه ومن قلبه شيء ، رغم تقادم العهد بها، وقد بغضت إليه الممتحنين وبغضت إليه آفته أكثر مما يبغضها، لكنها بشاعة الواقع ووقع الكلمة

السيئة على النفس ، الكلمة التي تميت ، ومقابلتها الحسنة التي تحيي والتي لم يسمعها الصبي منهم، إنما ذكروه بآفته وألقوها على سمعه"ولولا أن أخاه أخذ بذراعه فأنهضه في غير رفق وقاده إلى الممتحنين في غير كلام، لما صدق أن هذه الدعوة قد سيقت إليه؛ فكان قد تعود من أهله كثيرًا من الرفق به وتجنبًا لذكر هذه الآفة في محضره ، وكان يقدر ذلك وإن كان لم ينس قط آفته ولم يَشغل قط عن ذكرها، ومع ذلك فقد جلس أمام الممتحنين وطلب إليه أن يقرأ سورة الكهف فلم يكد يمضي في الآيات الأولى منها حتى طلب إليه أن يقرأ سورة العنكبوت، فلم يكد يمضي في الأولى منها حتى قال له أحد الممتحنين: " انصرف يا أعمى، فتح الله عليك""٩٣ .

ذكريات الصبي المؤلمة تعلقت بمشاعره تجاه آفته وتعامل الناس معها وهي ما توقف عندها كثيرًا ، وواجهها واستحضرها وهزمها ، لكن الصعوبات التي واجهها لم تقتصر على تلك التجربة ، تجربة فقدان البصر في مجتمع يحمل صاحب الآفة وزر آفته، لكن الصبي نشأ في أسرة لم تكن من الأغنياء، ترتب على ذلك ميل أبيه إلى التصوف وحب السحر والرقى والتعاويذ" على أن صاحبنا لم يكن يميل وحده إلى السحر والتصوف، وإنما كان يدفع إلى ذلك دفعًا، يدفعه إليه أبوه؛ ذلك أن الشيخ كان كثير الحاجات عند الله، كان له أبناء كثيرون وكان يحرص على تعليمهم وتهذيبهم، وكان فقيرًا لا يستطيع أن يؤدي نفقات هذا التعليم، وكان يستدين من حين إلى حين وكان يثقل عليه أداء الدين" ٩٤.

كما أن رحلة التعليم من قريته إلى القاهرة لم يكن فيها شيء من السهولة حتى على المبصرين ، ونرى الصبي ينتقل في أثناء السرد إلى الوقت الحالي ويخاطب ابنته قائلًا :"لقد كان أبوك ينفق الأسبوع والشهر لا يعيش إلا على خبز الأزهر، وويل للأزهريين من خبز الأزهر؛ إن كانوا ليجدون فيه ضروبًا من القش وألوانًا من الحصى وفنونًا من الحشرات.وكان ينفق الأسبوع والشهر والأشهر لا يغمس هذا الخبز إلا في العسل الأسود، وأنتِ لا تعرفين العسل الأسود، وخيرٌ لكِ ألا تعرفيه.كذلك كان يعيش أبوك جادًا، حتى إذا انقضت السنة وعاد إلى أبويه وأقبلا عليه يسألانه كيف يأكل؟ وكيف يعيش؟ أخذ ينظم لهم الأكاذيب كما تعود أن ينظم لك القصص، فيحدثهما بحياة يحياها كلها رغد ونعيم ، وما كان يدفعه إلى هذا الكذب حُب الكذب إنما كان يرفق بهذين الشيخين ويكره أن ينبئهما بما هو فيه من حرمان ، وكان يرفق بأخيه الأزهري، ويكره أن يعلم أبواه أنه يستأثر دونه بقليل من اللبن ، كذلك كانت حياة أبيك في الثالثة عشر من عمره.لقد حنا يا ابنتي هذا الملك على أبيك، فبذّله من البؤس نعيمًا،

ومن اليأس أملاً، ومن الفقر غنى، ومن الشقاء سعادةً وصفوًا ، ليس دين أَبيك لهذا الملك بأقل من دينك، فلتتعاونا يا ابنتي على أداء هذا الدين ، وما أنتما ببالغين من ذلك بعض ما تريدان" ٩٥

إنه يشعر بعظيم امتنان لرحلته بحلوها ومرها وبؤسها ويأسها وشقائها، وفي الوقت نفسه يفخر بانتقاله من كل ذلك إلى النعيم والأمل والغنى والسعادة.

وقد واجه الصعاب في حياته وقضى الأيام الثقال ، واستعاض عما حرم من رؤيته والتعرف عليه ، استبدل كل ما في حياة الأطفال أترابه بالقصص والحكايات ، ومنها إلى الأدب والعلم والمعرفة ، ولم يستسلم للسكون الذي فرض عليه ، واستبدل بصره ، بأبصار أبطال القصص والحكايات ، واستبدله أيضًا ببصيرة وإرادة وفلسفة في الحياة ، وكذلك فعل تشارلز ديكنز وهي سمة المبدعين الذين يحدثون الفارق في التاريخ بل يكتبونه في صورة حكاية من حياتهم عن ذاتهم.

الهروب من قسوة الواقع إلى لين الخيال عند طه حسين :

أحب صاحبنا في طفولته لونًا من ألوان اللهو وجد فيه عوضًا عما حرم منه من ألعاب الصبية من أترابه،ومن خوف أمه عليه من الأذى ، هذا اللون هو الاستماع إلى القصص والأحاديث، فكان أحب شيء إليه أن يسمع إنشاد الشِعر، أو حديث الرجال إلى أبيه، والنساء إلى أمه، ومن هنا تعلم حسن الاستماع، وكان أبوه وطائفة من أصحابه يحبون القصص حبًا جمًا، فإذا صلوا العصر اجتمعوا إلى واحد منهم يتلو عليهم قصص الغزوات والفتوح، وأخبار عنترة والظاهر بيبرس، وأخبار الأنبياء والنساك والصالحين، وكتبًا في الوعظ والسنن ، وكان صاحبنا يقعد معهم وهم عنه غافلون، ولكنه لم يكن غافلاً عما يسمع، بل لم يكن غافلاً عما يتركه هذا القصص في نفوس السامعين من الأثر، فإذا غربت الشمس تفرق القوم إلى طعامهم، حتى إذا صلوا العشاء اجتمعوا طرفًا من الليل، وأقبل الشاعر فأخذ ينشدهم بأخبار الهلاليين والزناتيين، وصاحبنا جالس يسمع في أول الليل كما كان يسمع في آخر النهار ، وعلى هذا النحو حفظ صاحبنا كثيرًا من الأغاني، وكثيرًا من التعديد، وكثيرًا من جد القصص وهزله، وحفظ شيئًا آخر لم يكن بينه وبين هذا كله صلة؛ وهي الأوراد التي كان يتلوها جده الشيخ الضرير إذا أصبح أو إذا أمسى ، ويقرأ ألوانًا من الأوراد والأدعية ، وكان صاحبنا ينام في حجرة مجاورة لحجرة هذا الشيخ، فكان يسمعه وهو يتلو وكان يحفظ ما يتلو حتى حفظ من هذه الأوراد والأدعية شيئًا كثيرًا، وكان أهل القرية يحبون التصوف ويقيمون الأذكار، وكان صاحبنا يحب منهم ذلك، لأنه كان يلهو بهذا الذكر، وبما ينشده المنشدون أثناءه ، ولم يبلغ التاسعة من عمره حتى كان قد

وعى من الأغاني والتعديد والقصص وشعر الهلاليين والزناتيين والأوراد والأدعية وأناشيد الصوفية جملة صالحة، وحفظ إلى ذلك كله القرآن " ٩٦ .

كل هذا ملأ على الصبي عقله وقلبه، وملأ أيامه بالحركة والرغبة في طلب المزيد حتى أن بعض المحيطين به عرفوا مطلبه، فزادوه من اللون الذي يحب وهذا اللون هو القصص والحكايات والكتب ، فإذا استطاع الصبي أن يقص عليه أحدوثة، أو يشتري له كتابًا من هذا الرجل الذي ينتقل بالكتب في قرى الريف، أو يتلو عليه فصلاً من قصة ((الزير سالم)) أو ((أبو زيد)) ٩٧ .

حتى زهد الصبي فيما كان يحبه إخوته، وما اعتادوا عليه، ورغب عن كل شيء يدخل البهجة والسرور على أترابه ، واستعاض عن ذلك كله بالقصص والحكايات ، والقراءة ، التي زرعت في نفسه شيئًا من الفلسفة، فما هي إلا أن أقبلت بوادر عيد الأضحى في سنة من السنين، وأخذت أم الصبي تستعد لهذا العيد تهيئ له الدار وتعد له الخبز وألوان الفطير، وأخذ أخوة الصبي يستعدون لهذا العيد، يختلف كبارهم إلى الخياط حينًا، وإلى الحذاء حينًا آخر، ويلهو صغارهم بهذه الحركة الطارئة على الدار، فينظر صبينا إلى أولئك وهؤلاء في شيء من الفلسفة كان قد تعوّده ، فلم يكن في حاجة إلى أن يتخلف إلى خيّاط أو حذَاء، وما كان ميالاً إلى اللهو بمثل هذه الحركات الطارئة، وإنما كان يخلو إلى نفسه ويعيش في عالم من الخيال يستمده من القصص والكتب المختلفة التي كان يقرؤها فيسرف في قراءتها٩٨ ، وهكذا هرب بانغماسه في القراءة من ضيق الحقيقة إلى سعة الخيال .

كما أن رغبة أبيه في تعليمه وتحضيره للالتحاق بالأزهر جعلته لا يكف عن إرساله إلى العلماء، أو كل من له معرفة بالعلوم الشرعية وعلوم اللغة، وكان صبينا يختلف بين هؤلاء العلماء جميعًا، ويأخذ عنهم جميعًا، حتى اجتمع له من ذلك مقدار من العلم ضخم مختلف مضطرب متناقض، ما أحسب إلا أنه عمل عملاً غير قليل في تكوين عقله الذي لم يخل من اضطراب واختلاف وتناقض٩٩ .

كما أرسله إلى المفتش، وهو قاضي الشرع الذي قدم من البندر، والذي تطوع أن يعلمه ألفية ابن مالك، وعلوم القرآن وأصول التجويد، وذهب الصبي إلى بيت المفتش ، واتصل ذهابه إلى هذا البيت وأقرأه المفتش تحفة الأطفال وشرح له أصول التجويد ؛ علمه المد والغن والإخفاء والإدغام وما يتصل بهذا كله، وكان الصبي معجبًا بهذا العلم، وكان يتحدث إلى أترابه في الكتّاب، وكان يبين لهم أن سيدنا لا يُحسن المد ولا يتقن الغن، ولا يعرف الفرق بين المد الكلمي والحرفي، ولا بين المد المُثقل

والمخفف، وكانت أصداء هذا كله تصل إلى سيدنا، تغمه وتحزنه وتخرجه أحيانًا عن طوره، وأخذ الصبي يقرأ القرآن على المفتش من أوله، وأخذ المفتش يعلمه مواضع الوقف والوصل، وأخذ الصبي يقلد المفتش في ترتيله ويحاكي نغمه، وأخذ يقرأ القرآن على هذا النحو في الكتّاب ، وجعل أبوه يمتحنه، فإذا سمعه يقرأ على هذا النحو الجديد أعجب وطرب وأثنى على المفتش ، وما كان شيء يغيظ سيدنا مثل ما كان يغيظه هذا الثناء١٠٠ .

من ذلك الوقت أحب الصبي العلم، وكان يحلم باليوم الذي يلتحق فيه بالأزهر ، وتصير مكانته مثل مكانة أخيه، وليكون كذلك مثل أخيه في نظر أبيه وأهل قريته الذين قدروا العلم وأصحابه نظرًا لسيادة الأمية ، وقلة المتعلمين، ومع ذلك لم يكن يعلم من أمر الأزهر شيئًا ، ولم يكن يعرف مما يحتويه الأزهر شيئًا، وإنما كان يكفيه أن تمس قدماه الحافيتان أرض هذا الصحن، وأن يمس وجهه نسيم هذا الصحن، وأن يحس الأزهر من حوله نائمًا يريد أن يستيقظ ، وهادئًا يريد أن ينشط ليعود إلى نفسه أو لتعود إليه نفسه ، وإذ هو يشعر أنه في وطنه وبين أهله لا يحس غربة ولا يجد ألمًا، وإنما هي نفسه تتفتح من جميع أنحائها، وقلبه يتشوق من جميع أقطاره ليتلقى.. ليتلقى ماذا؟ ليتلقى شيئًا لم يكن يعرفه، ولكنه كان يحبه ويدفع إليه دفعًا، طالما سمع اسمه وأراد أن يعرف ما وراء الاسم، وهو العلم ، وكان يشعر شعورًا غامضًا ولكنه قوي بأن هذا العلم لا حد له، وبأن الناس قد ينفقون حياتهم كلها ولا يبلغون منه إلا أيسره ، وكان يريد أن ينفق حياته كلها وأن يبلغ في هذا العلم أكثر ما يستطيع أن يبلغ مهما يكن في نفسه يسيرًا ، وكان قد سمع من أبيه الشيخ ومن أصحابه الذين كانوا يجالسونه من أهل العلم أن العلم بحر لا ساحل له، فلم يأخذ هذا الكلام على أنه تشبيه أو تجوز، وإنما أخذه على أنه الحق كل الحق١٠١ .

تطلع الصبي نحو الأزهر مستحضرًا حكايات أخيه وأمنيات أبيه ، وهو حين نقل صورة هذا المجتمع اتسم تصويره بالصدق الوجداني – كما هو الحال في كتاب الأيام كله– رغم عدم تقبله للطريقة التقليدية القديمة في إلقاء العلم وفي تلقيه ، وفي التأليف والكتابة والنقد كذلك فيما بعد، لكن كل ما شغله إبان انتقاله إلى القاهرة هي هذه الصورة التي رسمها للأزهر وأعمدته ورخامه ، والشيوخ ، ورغبته الكبيرة في طلب العلم والخوض في بحره، وأقبل إلى القاهرة وإلى الأزهر يريد أن يلقي نفسه في هذا البحر فيشرب منه ما شاء الله له أن يشرب ثم يموت فيه غرقًا ،وأي موت أحب إلى الرجل النبيل من هذا الموت الذي يأتيه من العلم ويأتيه وهو غرق في العلم! كان في أصوات الفجر دعاء للمؤمنين يشبه

الاستعطاف، وكان في أصوات الظهر هجوم على المؤلفين يوشك أن يكون عدوانًا، وكانت هذه الموازنة تعجب الصبي وتثير في نفسه لذة ومتاعًا١٠٢ .

وكما حصل من العلم في الأزهر حصل الكثير من الخبرة بتجارب الحياة في الربع الذي كان يقطن إحدى غرفه، ومن زملاء أخيه الذين كانوا يجتمعون إلى الطبلية يتداولون أخبار الشيوخ ويتبادلون تفاصيل يومياتهم ، ولم يكن يشارك معهم لكنه كان دائمًا ما يصمت ويسمع، وكان ذلك أحب إليه وآثر عنده؛ فقد كان يروقه أن يسمع ، وما كان أكثر ما كان يسمع! وما أغرب ما كان يسمع! وما أشد اختلاف ألوان الأحاديث التي كان يسمعها حول هذه المائدة المستديرة المنخفضة التي كانوا يسمونها (الطبلية) ١٠٣ .

عندما اعتاد التردد على حلقات العلم في الأزهر، اعتاد كذلك الجدل الذي لم يقبله منه الشيوخ، ولكنه في ذات يوم جادل الشيخ في بعض ما كان يقول ، فلما طال الجدال غضب الشيخ وقال للفتى في حدة ساخرة: ((اسكت يا أعمى! ما أنت ذاك!)) فغضب الفتى وأجاب الشيخ في حدة:(إن طول اللسان لم يثبت قط حقًا، ولم يمح باطلاً) فوجم الشيخ ووجم الطلاب لحظة، ثم قال الشيخ لطلابه:(انصرفوا اليوم فهذا يكفي) ١٠٤. حتى ضاق صدره أشد الضيق بدروس الأزهر وبطريقة الشيوخ ، وأيقن في داخله أن هذا لا يكفيه، إنما يريد أن يستزيد .

وعند بداية تعرفه على الأدب تمرد على ما تواضع عليه القدماء ، وما كان من المُسلَّمات ، وصار ذلك بذرة تمرده الأدبي والنقدي الذي أثار الجدل الذي لم يكد ينقطع حتى الآن ، وكذلك اتصل صاحبنا بالأدب على هذا النحو المضطرب المختلط، وجمع في نفسه أطرافًا من هذا الخليط بين الشِعر والنثر ، ولكنه لم يقف عند شيء من ذلك ولم يفرغ له، وإنما كان يحفظ منه ما كان يمر به حين تتاح له الفرصة،ثم يمضي لشأنه١٠٥.

وكان الصبي قوي الذاكرة، فكان لا يسمع من الشيخ كلمة إلا حفظها، ولا رأيًا إلا وعاه، ولا تفسيرًا إلا قيده في نفسه ، وكثيرًا ما كان يعرض البيت وفيه كلمة قد مضى تفسيرها أو إشارة إلى قصة قد قصها الشيخ فيما قدم من درسه، فكان صاحبنا يعيد على الشيخ ما حفظه من قصصه وتفسيره وما قيد من أرائه وخواطره ونقده لصاحب الحماسة وشراحها،وتصحيحه لرواية أبي تمام،وإكماله للمقطوعات التي كان أبو تمام يرويها١٠٦.

وإذا الفتى يؤثر هذا الدرس على غيره من الدروس شيئًا فشيئًا، ويختص اثنين من التلاميذ المقربين إلى الشيخ بمودته ثم بوقته ، وإذا هم يلتقون إذا كان الضحى فيسمعون للشيخ، ثم يذهبون إلى دار الكتب فيقرءون فيها الأدب القديم، ثم يعودون إلى الأزهر بعد العصر فيجلسون في هذا الممر بين الإدارة والرواق العباسي، يتحدثون عن شيخهم وما قرءوا في دار الكتب، ويعبثون بشيوخهم الآخرين، ويعبثون بالداخلين والخارجين من الشيوخ والطلاب ، فإذا صليت المغرب دخلوا الرواق العباسي فسمعوا درس الشيخ بخيت الذي كان يقرأ في تفسير القرآن مكان الأستاذ الإمام بعد أن توفى١٠٧، وكان أساتذته الأوائل في التوحيد والفقه الشيخ محمد مصطفى المراغي ، وفي الأدب الشيخ حسن المرصفي ، ثم سمع عن الجامعة المصرية والتي التحق بها في دروس مسائية ، وتعلم فيها على يد كثير من العلماء الأعلام العرب في وقته ،وكذلك نخبة من أهم المستشرقين الذين عرفوه على الآداب الأجنبية مثل الشعر اليوناني القديم والأدب الفرنسي ، ثم تعلم الفرنسية .

تاقت نفسه للحرية التي تنسمها بانغماسه في دراسة الأدب بجانب الدراسة الأزهرية، وما أعرف شيئًا يدفع النفوس،ولا سيما النفوس الناشئة إلى الحرية والإسراف فيها أحيانًا كالأدب، وكالأدب الذي يدرس على نحو ما كان الشيخ المرصفي يدرسه لتلاميذه حين كان يفسر لهم الحماسة أو يفسر لهم الكامل بعد ذلك للشاعر أولاً، وللراوي ثانيًا، وللشرح بعد ذلك، وللغويين على اختلافهم بعد أولئك وهؤلاء ، ثم امتحان للتذوق ورياضة له على تعرف باطن الجمال في الشِعر أو النثر، في المعنى جملة وتفصيلاً وفي الوزن والقافية وفي مكان الكلمة بين أخواتها ، ثم اختبار للذوق الحديث، وبين كلال العقل الأزهري ونفاذ العقل القديم، وانتهاء من هذا كله إلى تحطيم القيود الأزهرية، وإلى الثورة في عملهم وذوقهم وفي سيرتهم وأحاديثهم بالحق في كثير من الأحيان، والإسراف والتجني في بعض الأحيان١٠٨.

ثم دخل بعدها عالم الصحافة وبدأ طريق النقد والكتابة ، وبعدها تعلم الفرنسية في الجامعة ، وأُرسل في بعثة إلى فرنسا ، لكن شخصيته الأدبية والنقدية كانت قد تكونت بالفعل قبل تجربة فرنسا، فكل ما سبق من عوامل دفعت الصبي دفعًا نحو القصص والقراءة والعلم ، ثم الأدب وكونت شخصيته الأدبية وعملت على خلق العبقرية الفذة الفريدة التي أنتجت كتاب الأيام ، عجيب أمر كتاب الأيام ، قرأناه وقرأناه ومازلنا على عهد بقراءته ، ولازلنا نجدد هذا العهد، نحن وغيرنا فقد ترجم إلى العديد من

اللغات، هل يكمن السر في لغته وبيانه ، أم في سهولته وانسيابيته ،أم في بنيته الفنية المتقنة ،من تسلسل الأحداث ورسم الشخصيات ،أم هذا كله إضافة إلى كونه نبعاً من الذات عن الذات

الخاتمة – بين الأيام وديفيد كوبر فيلد :

سعى البحث إلى المقارنة بين العملين (الأيام ، ديفيد كوبرفيلد)، حول نسبة كل منهما إلى جنس أدبي بعينه،إذ يتشابه العملان في اختلاف النقاد في تصنيفهما للرواية السيرذاتية ، أو السيرة الذاتية، او الرواية، وكذلك في العوامل المكونة لشخصية الأديب، وبناء الخلفية المعرفية لكل منهما ، والتشابه المعنوي في مراحل النشأة، رغم الاختلاف التام في المعتقد، والمجتمع، والبيئة، والثقافة، والمكان ، تبقى الذات الإنسانية المتعبة من قسوة الواقع ومرارة التجارب واحدة، هي الذات التي كابدت المشاق، والتي يجمعها الألم، ويضنيها الحزن، وتنصفها الإرادة، ويحييها الأمل ، والتي تنتصر في النهاية رغم طول الرحلة ، وتظل تجربتها باقية، شاهدة ، ملهمة.

يقف البحث على محاولة تلمس العوامل المشتركة بين حياة الأديبين، ومقارنة تلك اللبنات التي شكلت شخصية الأديب عند تشارلز ديكنز بمثيلاتها في حياة الأديب طه حسين . من خلال مرجعية التجربة الشعورية المبنية على الواقعية عند كل من طه حسين في الأيام ، وتشارلز ديكنز في ديفيد كوبر فيلد، يحمل الكتابان سمة المرجعية الواقعية الذاتية مع رحابة واتساع الخيال والإبداع .كما يتشابهان في طريقة تكوين الخلفية الثقافية للأديب، وكلا الأديبين تُرجمت أعمالهما إلى العديد من اللغات .. وكانت نبعًا لم ينضب معينه حتى الآن في تصوير المجتمع والبيئة وغيره الكثير ، وأوجه الشبه بين طه حسين وتشارلز ديكنز واضحة جلية من حيث الأثر القوي للبيئة التي نشأ فيها كل منهما، رغم الفروق الجذرية بين البيئتين، والمفارقة إذ نشأ أحدهما في الدولة المستعمَرة، والآخر في الدولة المستعمِرة ، إلا أن المعاناة لطالما لاحقت الإنسان أينما نشأ وأينما حل ، وربما تكون سمة الإنسانية ، فقد خلق الإنسان في كبد، لكن الأديب يرى الحياة بعين ثاقبة، ويعيش المأساة بنفس مرهفة ، ويصمد أمام المحن بإرادة قوية ، تقاوم وتقاوم حتى تنقل التجربة الإنسانية من الفردية إلى الجمع، وقد تحقق ذلك بأقصى قدر ممكن في الأيام ، وديفيد كوبر فيلد ووجدنا القدرة الهائلة عند الأديبين على الوصف الدقيق للبيئة، وللأشخاص، وللأثر النفسي الناتج عن كل حدث صغيراً كان أو عظيماً ، كما وجدنا حيوية الصور المرسومة التي تجذب المتلقي للعيش فيها والتفاعل معها.

بينما جعلنا طه حسين نتعايش معه وإخوته في قريته، ومع أبيه وأمه في تعاطيهما مع الأحداث التي تمر على العائلة ، أفراحها وأحزانها ، ومع سيدنا والعريف والأطفال في الكتاب، ثم مع الحارة في أحياء القاهرة الشعبية ، والربع وطلاب العلم ، ثم الشيوخ في الأزهر ، ثم الجامعة وتجربة الصحافة ، وثم وثم ، نجد ديكنز جعلنا نتعايش مع الطبقات الفقيرة في لندن ، ومع الأطفال المحرومين من حنان ودفء الأسرة ، وتجربة فقدان الأب سواء بالموت أو السجن، والمعاناة مع زوج الأم القاسي الذي يؤذيه نفسيًا وجسديًا، والتعليم في مدرسة عجيبة مخيفة ، وتجربة العمل طفلًا صغيرًا ، ثم تجارب العمل في المحاماة والمحاكم الإنجليزية في زمنه ، واللصوص ، والملاحظ هو قدرة الأديبين العجيبة على خلق الجمال الأدبي من بشاعة الحياة وقسوة الإنسان على الإنسان، وتخييل التجربة حتى ليظن كل قارئ أنها تجربته الخاصة.

بمقارنة العوامل التي أثرت في حياة أديبين كبيرين من أدباء العالم ، لكل منهما أثر كبير في الأدب القومي الذي ينتمي إليه ، والبحث يحاول إضاءة التجارب والخبرات التي صقلت شخصية كل منهما ، من خلال التخييل الذاتي في روايتين من أشهر وأجود أعمالهما والتي تمثلان سيرة ذاتية لكل منهما فقد خلع كل منهما شخصيته ووظفها فصارت بطلًا متخيلًا في الحكاية، ثم حكى هذا البطل عن مكنونات نفسه وما ألم به من مشاعر تجاه التحديات التي قابلته في طفولته ونشأته حتى وصل إلى مكانته الأدبية . والصعوبات التي ألمت بطفولة الأديبين ودفعتهما دفعًا نحو القراءة وحب القص والقصص ، وطلب العلم حتى أخرجت قدراتهما الإبداعية وطاقاتهما التأليفية ، حتى صار كل منهما في مكانه المتميز الذي تبوأه على رأس قائمة الأدباء المبدعين في العالم ، وصارت أعمالهما علامات في الأدب العالمي.

نقل طه حسين معاناته في الطفولة ، وكذلك ديكنز نقل معاناته في طفولته بالإضافة إلى كثير من الحوادث والتجارب التي يبدو جليًا أنها نُقشت كالوشوم في شخصيته حتى صار أديبًا ، من خلال رحلة حياة ديفيد كوبر فيلد من بواكير الطفولة إلى منتصف الثلاثينات، وهو نفسه عمر ديكنز عندما كتب الرواية، وقد ركز ديكنز على التغيرات التي لحقت بشخصية كوبرفيلد، وكل أثر تُرك في نفسه من الشخصيات التي قابلها طوال حياته ، كما أضاء ديكنز هذا التقدم الذي أحرزه ديفيد من طفل بائس فقير، إلى روائي شهير يعيش في سعادة مع آجنس التي يحب ، وإذا به يفتخر بالطفل ديفيد وبالطفل

تشارلز في الآن نفسه الذي انتصر فيه على التحديات والصعاب، وانتصر كذلك في معركة الحياة الضروس.

الأمر نفسه مع الدكتور طه حسين الذي أصيب في طفولته بآفة فقدان البصر، والتي قاسى على أثرها طوال فترة نشأته وظل يقاوم ويقاوم ، ويسير في طريق العلم، رغم انتشار الجهل والخرافات وغياب العلم، في مجتمعه وبيئته المحيطة، وهو ما أودى بنظره في أول الأمر، ثم ما تبع ذلك من عواقب.

أما على مستوى التصنيف الاجناسي ، فقد احتملت الأيام بعض عناصر أساسية للتخييل الذاتي ، وكذلك ديفيد كوبر فيلد ، أن تكون القصة كما قال دبروفسكس ، قصتي أنا وحياتي أنا ، فهي قصة الأنا= الذات لكل من طه حسين وتشارلز ديكنز ، بعد غض النظر عن الشروط الصارمة التي اشترطت لرواية التخييل الذاتي ، فإن النظر إلى العملين وتبين التخييل الذاتي فيهما، ينقل للقارئ مشهد الذات في مواجهة العالم ، المواجهة التي بنيت بالتخييل عن طريق تجريد الذات وتصوير معاناتها ومأساتها وكذا قوتها وصلابتها وقدرتها على التحدي والتغيير، خصوصية التجربة الأدبية هنا وغوصها في أعماق النفس الإنسانية هي جوهر الكتابة عن الذات ومنها التخييل الذاتي بطبيعة الحال.

منح التخييل لأصحاب المأساة صوتًا قويًا عاليًا مدويًا ، لنقل المعاناة من جانب ، وللمباهاة والتفاخر بقوة الفرد الواعي وقدرته على البقاء أولًا ، ثم إحداث الأثر الإيجابي في المجتمع والعالم ثانيًا .

ارتمى الأديبان في أحضان الخيال ، وخلقا البطل التخييلي المعادل لذواتهما؛ لينوب عنهما في استحضار الماضي واسترجاعه ومواجهته ، ومن ثم مشاركة العالم في انتصارهماعليه ؛ وهو ما ظهر في تدفق الأحاسيس والمشاعر في الصور الحية التي كونها كل منهما ببراعة فائقة ، لاسيما تلك التي تخص مراحل الطفولة .

تبقى النصوص الأدبية الرائدة ، والأعمال الإبداعية المتفردة الخالدة ، ذات الطاقات الإيحائية اللامحدودة – تبقى مفتوحة الأبواب والنوافذ طوال الوقت وعلى مر العصور لقراءات متجددة، تحيا من خلالها أبدًا .

[1]ناصر بركة : أدبية السير الذاتيّة في العصر الحديث بحث في آليات اشتغال النصوص ومرجعياتها الفاعلة، رسالة دكتوراه جـــامعة الحـــاج لخضر -باتنـــة- ، الجزائر ، ٢٠١٣ م ، صـ ١.

[2]يراجع : يحيى إبراهيم عبد الدايم : الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان ، ١٩٧٥م ،د.ط.

[3] شعبان عبد الحكيم محمد: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، ،ص(١٣)،الناشر الوراق ،ط(١)،عمان ،تخ ٢٠١٥م.

[4]محمد القاضي: الظاهر و الباطن في كتاب الأيام بحث في التبئير وقائع ندوة: مائوية طه حسين: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون – بيت الحكمة، ١٩٩٠م، صـ ٢٠٧.

[5]فيليب لوجون: السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، تر: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، ط - ١ ، ١٩٩٤ ،صـ ٢٢.

[6]فيليب لوجون: السيرة الذاتية والميثاق الأدبي ، صـ ٢٣.

[7]المعجم الوسيط مادة (سير) ، الجزء الأول، طبعة مجمع اللغة العربية، القاهرة.١٩٨٥، ص ٤٨٥.

[8]مجدي وهبة، وكامل المهندس : معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ١٩٨٤،ط ٢،ص: ٢٠٥.

[9]المعجم الوسيط مادة (ترج)، ص٨٧.

[10]راجع عبد النور جبور،المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، لبنان، ط ٢ ، ١٩٨٤، ص١٤٣.

[11]راجع عز الدين إسماعيل: الأدب و فنونه، دار النشر المصرية ، الطبعة الأولي، القاهرة، ١٩٥٥ ، ص ٢٤٤ : ٢٤٧ . و راجع أيضا حسين فوزي النجار : التاريخ و السير. دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٤، ص ١٤ . و راجع أيضا إحسان عباس : فن السيرة ، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٦. ص ١١٢ . وراجع أيضا عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية لونجمان، القاهرة ١٩٩٢، ص ٣ : ٦ . و راجع أيضا محمد عبد الغني حسن : التراجم والسير، ص ٣٦:٣١.

[12]راجع محمد عبد الغني حسن : التراجم والسير، ص ٢٨.

[13]محمد القاضي: الظاهر و الباطن في كتاب الأيام بحث في التبئير، صـ٢٠٨.

[14]السيرة الذاتية العربية بين فعل الكتابة وفعل إدراك الذات، حسين تروش، جامعة سطيف، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، ع١٦، ص٥٤.

[15]عز الدين إسماعيل : الأدب وفنونه ،صـ ١٥١.

[16]حتى عنونت السير الذاتية لبعض الأدباء والكتاب بالاعترافات ، مثل اعترافات القديس أوغسطين ، واعترافات تولستوي ، يراجع :https://www.goodreads.com/ar/book/show/17840957

[17] رينيه ويليك ، وأوستن وارن: نظرية الأدب، ترجمة :عادل سلامة ،ص١٠٩الناشر دار المريخ ،د.ط ،الرياض ،١٩٩٢م.

[18] رينيه ويليك ، وأوستن وارن: نظرية الأدب، ،صـ١٠٣.

[19]يحيي إبراهيم عبد الدايم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، ، ص(٤٨١)،الناشر : دار أحياء التراث العربي ، د.ط ،بيروت ،د.ت .

[20]راجع حميدي بلعباس: السيرة والتخييل، مقاربات في أشكال الكتابة عن الذات، ، جامعة معسكر، مجلة قراءات للبحوث والدراسات الأدبية والنقدية واللغوية،ع٢، ٢٠١١، ص ١١٩.

[21] راجع يمني العيد: السيرة الذاتية الروائية والوظيفة المزدوجة، دراسة في ثلاثية حنا مينه، مجلة فصول ، م ١٥ ، ع٤، ١٩٩٧ ، ص١

[22]راجع علي أدهم، على هامش الأدب والنقد، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م ، ص ٣٨.

[٢٣]خليل بومعزة : التخييل الذاتي في رواية الحالم لسمير قسيمي ، الناشر جامعة الإخوة منتوري قسطنطينة ، د.ت د.ط ، صـ ٣٤.

[٢٤]إيمانويل سامي: التخييل الذاتي عند إيزابيل كريل ، ترجمة محمد الداهي : الناشر سعيد بنكراد مجلة علامات ، ع ٤٨، ٢٠١٧م ،صـ ١٥٣.

[٢٥]السابق صـ ١٥٤.

[٢٦]السابق صـ١٥٤.

[٢٧]عبد الله شطاح : التخييل الذاتي محاولة تأصيل ، مجلة الآداب العالمية ،مج ٣٩،ع٢٠١٥،١٦٢،١٦١م صـ٢٣.

[٢٨]إيمانويل سامي: التخييل الذاتي عند إيزابيل كريل صـ ١٥٤.

[٢٩]يراجع :خليل بومعزة : التخييل الذاتي في رواية الحالم لسمير قسيمي ، صـ ٣٦.

[٣٠]عبد الله شطاح : التخييل الذاتي محاولة تأصيل ، صـ١٦.

[٣١]السابق ، صـ١٦.

[٣٢]السابق صـ١٧.

[٣٣]السابق صـ ١٧.

[٣٤]السابق صـ٢٢.

[٣٥]محمد الداهي: التخييل الذاتي هوية المفهوم ومفارقاته، مجلة آفاق اتحاد كتاب المغرب، العدد - - ٧٩ / ٨٠ ، ٢٠١٠ ، ص ٤٨

[٣٦]عبد الله شطاح : التخييل الذاتي محاولة تأصيل صـ ٢٧.

[٣٧]السابق صـ٣٠.

[٣٨]السابق صـ٣٠.

[٣٩]السابق صـ٣٠.

[٤٠]محمد القاضي: الظاهر و الباطن في كتاب الأيام بحث في التبئير صـ٢١٠.

[٤١]السابق صـ٢١٠.

[٤٢]شوقي ضيف: الترجمة الشخصية ، دار المعارف ط٤، ١٩٨٧. من المقدمة .ويراجع كذلك المرجع نفسه من صـ ١١٣ إلى١١٩.

[٤٣]محمد القاضي: الظاهر و الباطن في كتاب الأيام بحث في التبئير صـ٢١٦

[٤٤]أندريه موروا: فن التراجم والسير الذاتية، تر. وتقويم وتعليق أحمد درويش، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية (المجلس الأعلى للثقافة، ط ١، ١٩٩٩ ، ص ١٠٣

[٤٥]فايد محمد:تجربة التخييل الذاتي في الرواية الجزائرية، مجلة المدونة، كتاب المؤتمر الدولي: السيرة الذاتية - والتخييل الذاتي الرواية الجزائرية والعربية، دار التل للطباعة، الجزائر، العدد ٨ ، ٢٠١٧ ، ص ٢١٦ .

[٤٦]يراجع
https://www.charlesdickenspage.com/copperfield-ch11.html

[٤٧]يراجع DICKENS AND HIS INTRUSIVE FIRST-PERSON "AUTHORS" A Dissertation Presented for the Doctor of Philosophy Degree The University of Tennessee, KnoxvilleArthur L. Rogers II May 2002 ProQuest Information and Learning Company 300 North Zeeb Road صـ ١٢٨ ،

يقول : Dickens did have a "pressing autobiographical urge": "He turned much of this preoccupation with his own past into material for his novels, by frinneling

autobiographical details into his fiction. Versions of his own travels, school experiences, friendships, loves, and parents appear regularly in his novels, emerging in especially direct and important ways in David Copperfield'

[٤٨] يراجع DICKENS AND HIS INTRUSIVE FIRST-PERSON "AUTHORS" A Dissertation Presented for the Doctor of Philosophy Degree The University of Tennessee, KnoxvilleArthur L. Rogers II May 2002 ProQuest Information and Learning Company 300 North Zeeb Road صـ ١٢٩.

[٤٩] Khadidja Moussaoui و Bourahla Ddjelloul: Autobiographical elements in Charles DickensS david copperfield صـ٣٨.

[٥٠] تراجع رسالة الماجستير السابقة ، صـ٣٩، وهي مكتوبة باللغة الإنجليزية ، والنص المترجم من ترجمة الباحثة . وكذلك جميع الاستشهادات المنقولة من هذه الدراسة في أثناء البحث.

[٥١] يراجع https://www.britannica.com/topic/David-Copperfield-novel

والنص الأصلي : *David Copperfield* has always been among Dickens's most popular novels and was his own "favourite child."

[٥٢] Khadidja Moussaoui و Bourahla Ddjelloul: Autobiographical elements in Charles DickensS david copperfield صـ ٤٠

[٥٣] يراجع في كل المعلومات عن حياة تشارلز ديكنز إلى : jhon forster: the life of charles dickens والمقروءفي موقع : https://www.gutenberg.org/cache/epub/25851/pg25851-images.html.

[٥٤] تشارلز ديكنز : دافيد كوبرفيلد ، ترجمة مختار السويفي من سلسلة الأدب العالمي ، مكتبة ٢٠٠٠ ، د.ت د.ط ، صـ٦٢.

[٥٥] David copperfield : the personal history: by Charles dickens: صـ ١٢٨.

[٥٦] يراجع ***DICKENS AND HIS INTRUSIVE FIRST-PERSON "AUTHORS" A Dissertation Presented for the Doctor of Philosophy Degree The University of Tennessee, KnoxvilleArthur L. Rogers II صـ ١٣٠،١٢٩ .***

[٥٧] قاموس الأدب العربي الحديث :حمدي السكوت ،ص (٤١٢)،الناشر :الهيئة المصرية العامة للكتاب ،د.ط ،ت ٢٠١٥ .

[٥٨] إحسان عباس : فن السيرة ، دار الشروق – عمان الأردن ، ط١ ،١٩٩٦م. صـ ١٣١.

[٥٩] عبد العزيز شرف : أدب السيرة الذاتية ، صـ ٦٣.

[٦٠] السابق صـ ٦٥.

[٦١] Le Cri de la Mouette d'Emmanuelle Laborit et le Livre des Jours de Taha Husyn: Analytique Comparee,Darwiche, Sahar,page 97 Etude،جامعة بنها. كلية الآداب. ج٤،ع٣٧.

[٦٢] آمنة عبد العزيز محمد: رواية السيرة الذاتية بين التصريح والتلميح عند "بيامي صفا "وطه حسين (دراسة نقدية مقارنة) ،صـ٢٤٧،كلية الألسن. جامعة عين شمس .

[٦٣] عبد الكريم قطب شحاتة : تيار الوعي وإشكالية الهوية في رواية جيمس جويس صورة الفنان شابًا ورواية طه حسين الأيام، رابطة الأدب الحديث ، فكر وإبداع ، ج١٠٤ ، ٢٠١٦م . صـ١-٤٣.

[٦٤] زهرا كروكوي: دراسة تحليلية للقواسم المشتركة والوجوه المتباينة فى السير الذاتية والرحلات فى الأدبين العربى والفارسى؛ الأيام ل «طه حسين » و «ازپاريز تا پاريس » ل «محمد إبراهيم بستاني باريزي » أنموذجين، مجلة آداب البصرة ، جامعة البصرة - كلية الآداب، ع ١ ٢٠٢٢م.

[٦٥] رشا السيد جودت صالح :التقنيات الفنية للسيرة الذاتية في مرحلة الطفولة : مدخل نظري ودراسة مقارنة بين أيام طه حسين وطفولة ساروت، مجلة كلية الآداب جامعة بنها ، ع١٨، ج٢، ٢٠٠٨م ، صـ ٤١٥-٤٤٩٤.

[٦٦] طه حسين : الأيام في مجلد واحد ، طبعة مركز الأهرام للترجمة والنشر ، ط١ ، ١٩٩٢م ،صـ١٢.

[٦٧] السابق ،صـ ١٣:١٢.

[٦٨] السابق ،صـ٢٠٥.

[٦٩] السابق صـ ٢٠٧.

[٧٠] السابق صـ ٢٧٤.

[٧١] إحسان عباس : فن السيرة صـ١٣٢.

[٧٢] السابق صـ ١٣٣، ١٣٤.

[٧٣] عمار شرقية: أعمال تشارلز ديكنز، دراسة أدبية ،ص(٧)،د.ط،د.ت.

[٧٤] يراجع https://www.britannica.com/topic/David-Copperfield-novel والنص المترجم من ترجمة الباحثة. وبتصرف وتلخيص الباحثة.

[٧٥] تقدر المسافة بين دوفر ولندن ب٧٦ ميلًا ، يراجع موقع : https://ar.needcalc.com/distance/624-1.

[٧٦] يراجع : https://www.theschoolrun.com/homework-help/life-victorian-era#:~:text=There%20was%20a%20big%20difference,get%20paid%20very%20much%20money مقال بعنوان life in the victorian era = الحياة في العصر الفيكتوري.

[٧٧] David copperfield : the personal history: by Charles dickens: the university society publishers:1908 p56

والنص الأصلي هو : " " Yes, and again, as we walk home, I note some neighborslooking at my mother, and at me, and whispering. Again, asthe three go on, arm-in-arm, and I linger behind alone, I fol-low some of those looks, and wonder if my mother's step bereally not so light as I have seen it, and if the gaiety of herbeauty be really almost worried away. Again, I wonderwhether any of the neighbors call to mind, as I do, howweused to walk home together, she and I ; and I wonder stupidlyabout that, all the dreary dismal day والنص المترجم بالعربية من ترجمة الباحثة .

[78] النص الأصلي:" " Mr. Murdstone comes out of his chair, takes the book, throws it at me,or boxes my ears with it, and turns me out of the room by the shoulders " يراجع:David copperfield : the personal history: by Charles dickens، صـ٥٨.

[٧٩] يراجع David copperfield : the personal history: by Charles dickens صـ ٦٢ ، ٦٣ ، النص مترجم وملخص من الصفحتين .

[٨٠] David copperfield : the personal history: by Charles dickens p66 بتصرف الباحثة في الترجمة.

[٨١] يراجع فورستر من الموقع الإلكتروني السابق رقم ٥٤ ،صـ٤٤.

[٨٢] السابق رقم ٥٤، صـ٤٤.

[83] David copperfield : the personal history: by Charles dickens p 59 والنص الأصلي هو : "It was this. My father had left a small collection of books in a little room up stairs, to which I had access (for it adjoined my own) and which nobody else in our house ever troubled. From that blessed little room, Koderick Random, Peregrine Pickle, Humphrey Clinker, Tom Jones, The Vicar of Wakefield, Don Quixote, Gil Bias, and Robinson Crusoe, came out, a glorious host, to keep me company. They kept alive my fancy, and my hope of something beyond that place and time, they, and the Arabian. Nights, and the Tales of the Genii, "

[٨٤] يراجع ***DICKENS AND HIS INTRUSIVE FIRST-PERSON "AUTHORS" A Dissertation Presented for the Doctor of Philosophy Degree The University of Tennessee, KnoxvilleArthur L. Rogers II May 2002 ProQuest Information and Learning Company 300 North Zeeb Road*** صـ ١٢٧ و ١٢٨

[٨٥] طه حسين :الأيام ،صـ ٢٧.

[٨٦] السابق ، صـ ٢٨.

[٨٧] السابق ، صـ ١١٠.

[٨٨] السابق صـ ١١٣.

[٨٩] السابق ،صـ ١٦٢.

[٩٠] السابق صـ ٢٢٨.

[٩١] السابق صـ ١٦٢.

[٩٢] السابق صـ ٢٢٤، ٢٢٥.

[٩٣] السابق صـ ٢٢٥.

[٩٤] السابق ،صـ ٢٢٦.

[٩٥] السابق صـ ١٢٢،١٢١.

[٩٦] السابق ،صـ٣١.

[٩٧] السابق ،صـ ٥٠.

[٩٨] السابق صـ ٩٩.

[٩٩] السابق ،صـ٧٤.

[١٠٠] السابق ،صـ٩٥.

[١٠١] السابق ،صـ١٣٨.

[١٠٢] السابق ،صـ١٣٨.

[١٠٣] السابق ،صـ١٣٩.

[١٠٤] السابق ،صـ٢٧٥،٢٧٤.

[١٠٥] السابق ،صـ٢٨٠.

[١٠٦] السابق ،صـ٢٨٣.

[١٠٧]السابق ،صـ٢٨٤.
[١٠٨]السابق ،صـ٢٨٥.

قائمة المراجع :
مراجع عربية ومترجمة:

١. إحسان عباس : فن السيرة ، دار الشروق – عمان الأردن ، ط١ ،١٩٩٦م.
٢. آمنة عبد العزيز محمد: رواية السيرة الذاتية بين التصريح والتلميح عند "بيامي صفا "وطه حسين (دراسة نقدية مقارنة) ،صـ٢٤٧،كلية الألسن. جامعة عين شمس .
٣. أندريه موروا: فن التراجم والسير الذاتية، تر. وتقويم وتعليق أحمد درويش، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية (المجلس الأعلى للثقافة، ط ١، ١٩٩٩ .
٤. إيمانويل سامي: التخييل الذاتي عند إيزابيل كريل ، ترجمة محمد الداهي : الناشر سعيد بنكراد مجلة علامات ، ع ٤٨، ٢٠١٧م .
٥. تشارلز ديكنز : دافيد كوبرفيلد ، ترجمة مختار السويفي من سلسلة الأدب العالمي ، مكتبة ٢٠٠٠ ، د.ت د.ط ،
٦. حسين فوزي النجار : التاريخ و السير. دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٤.
٧. حمدي السكوت: قاموس الأدب العربي الحديث ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،د.ط ، ٢٠١٥ .
٨. حميدي بلعباس: السيرة والتخييل، مقاربات في أشكال الكتابة عن الذات، ، جامعة معسكر، مجلة قراءات للبحوث والدراسات الأدبية والنقدية واللغوية،ع٢، ٢٠١١.
٩. خليل بومعزة : التخييل الذاتي في رواية الحالم لسمير قسيمي ، الناشر جامعة الإخوة منتوري قسطنطينة ، د.ت د.ط .
١٠. رشا السيد جودت صالح :التقنيات الفنية للسيرة الذاتية في مرحلة الطفولة : مدخل نظري ودراسة مقارنة بين أيام طه حسين وطفولة ساروت، مجلة كلية الآداب جامعة بنها ، ع١٨، ج٢، ٢٠٠٨م ، صـ ٤١٥-٤٤٩٤.
١١. رينيه ويليك ، وأوستن وارن: نظرية الأدب، ترجمة :عادل سلامة ،الناشر دار المريخ ،د.ط ،الرياض ،١٩٩٢م.
١٢. السيرة الذاتية العربية بين فعل الكتابة وفعل إدراك الذات، حسين تروش، جامعة سطيف، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، ع١٦، ص٥٤.
١٣. شعبان عبد الحكيم محمد: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ،الناشر الوراق ،ط(١)،عمان ،تخ ٢٠١٥م.
١٤. شوقي ضيف: الترجمة الشخصية ، دار المعارف ط٤، ١٩٨٧.
١٥. طه حسين : الأيام في مجلد واحد ، طبعة مركز الأهرام للترجمة والنشر ، ط١ ، ١٩٩٢م ،صـ١٢.
١٦. عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية لونجمان، القاهرة ١٩٩٢، ص ٣ : ٦ .
١٧. عبد الكريم قطب شحاتة : تيار الوعي وإشكالية الهوية في رواية جيمس جويس صورة الفنان شابًا ورواية طه حسين الأيام، رابطة الأدب الحديث ، فكر وإبداع ، ج١٠٤ ، ٢٠١٦م . صـ١-٤٣.
١٨. عبد الله شطاح : التخييل الذاتي محاولة تأصيل ، مجلة الآداب العالمية ،مج ٣٩،ع٢٠١٥،١٦٢،١٦١م.
١٩. عبد النور جبور،المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، لبنان، ط ٢ ، ١٩٨٤، ص١٤٣.
٢٠. عز الدين إسماعيل: الأدب و فنونه، دار النشر المصرية ، الطبعة الأولي، القاهرة، ١٩٥٥ .
٢١. علي أدهم، على هامش الأدب والنقد، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م .

٢٢. عمار شرقية: أعمال تشارلز ديكنز، دراسة أدبية د.ط،د.ت.
٢٣. فايد محمد:تجربة التخييل الذاتي في الرواية الجزائرية، مجلة المدونة، كتاب المؤتمر الدولي: السيرة الذاتية -والتخييل الذاتي الرواية الجزائرية والعربية، دار التل للطباعة، الجزائر، العدد ٨.
٢٤. فيليب لوجون: السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، تر: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، ط - ١ ، ١٩٩٤.
٢٥. مجدي وهبة، وكامل المهندس : معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان،١٩٨٤،ط ٢.
٢٦. محمد الداهي: التخييل الذاتي هوية المفهوم ومفارقاته، مجلة آفاق اتحاد كتاب المغرب، العدد - - ٧٩ / ٨٠ ، ٢٠١٠ .
٢٧. محمد القاضي: الظاهر و الباطن في كتاب الأيام بحث في التبئير وقائع ندوة: مائوية طه حسين: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون – بيت الحكمة، ١٩٩٠م.
٢٨. المعجم الوسيط مادة (ترج).
٢٩. المعجم الوسيط مادة (سير) ، الجزء الأول، طبعة مجمع اللغة العربية، القاهرة.١٩٨٥.
٣٠. ناصر بركة : أدبية السير الذاتيّة في العصر الحديث بحث في آليات اشتغال النصوص ومرجعياتها الفاعلة، رسالة دكتوراه جـــــامعة الحـــاج لخضر -باتنـــــة- ، الجزائر ، ٢٠١٣ م .
٣١. يحيى إبراهيم عبد الدايم : الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان ، ١٩٧٥م ،د.ط.
٣٢. يحيي إبراهيم عبد الدايم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، الناشر : دار أحياء التراث العربي ، د.ط ،بيروت ،د.ت .
٣٣. يمني العيد: السيرة الذاتية الروائية والوظيفة المزدوجة، دراسة في ثلاثية حنا مينه ، مجلة فصول ، م ١٥ ، ع٤، ١٩٩٧ .

مراجع عربية بلغة أجنبية :

١- Khadidja Moussaoui وBourahla Ddjelloul: Autobiographical elements in Charles DickensS david copperfield. رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة قاصدي مرباح- ورقلة، ٢٠١٤م
٢- Farida Sadoune وDickens s' David Characterisation In Charles : Razika Djebbar Copperfield) رسالة ماجستير غير منشورة). 2013جامعة قاصدي مرباح - ورقلة، ورقلة. مسترجع من Record/com.mandumah.search://h٩٤٠٦٢٤/
٣-Le Cri: Sahar Darwich de la Mouette d'Emmanuelle Laborit et le Livre des Jours de Taha Husyn: Etude Analytique Comparee,Darwiche, Sahar,page 2014،جامعة بنها. كلية الآداب. ج٤،ع٣٧.
٤- زهرا كروكوي: دراسة تحليلية للقواسم المشتركة والوجوه المتباينة فى السير الذاتية والرحلات فى الأدبين العربى والفارسى؛ الأيام ل «طه حسين » و «ازپاريز تا پاريس » ل «محمد إبراهيم بستاني باريزي » أنموذجين، مجلة آداب البصرة ، جامعة البصرة - كلية الآداب، ع ١ ٢٠٢٢م.

مراجع أجنبية :

١. David copperfield : the personal history: by Charles dickens: the university society publishers:1908
٢. L. Rogers :DICKENS AND HIS INTRUSIVE FIRST-PERSON "AUTHORS" A Dissertation Presented for the Doctor of Philosophy Degree

The University of Tennessee, KnoxvilleArthur II May 2002 ProQuest Information and Learning Company 300 North Zeeb Road.

٣. jhon forster: the life of charles dickens

٤. والمقروءفي موقع : https://www.gutenberg.org/cache/epub/25851/pg25851-images.html.

مواقع شبكية :

١. https://www.charlesdickenspage.com/copperfield-ch11.html

٢. https://www.britannica.com/topic/David-Copperfield-novelير

٣. https://www.britannica.com/topic/David-Copperfield-novel

٤. https://ar.needcalc.com/distance/624-1.

٥. https://www.theschoolrun.com/homework-help/life-victorian-era#:~:text=There%20was%20a%20big%20difference,get%20paid%20very%20much%20money